

سُورَةُ الْبُرُوجِ

حِينَ تُحَاصِرُ الْأَجْسَادُ وَيَنْتَصِرُ الْإِيمَانُ



تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ الْبُرُوجِ

حِينَ تُحَاصِرُ الْأَجْسَادُ وَيَنْتَصِرُ الْإِيمَانُ



تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

ما الذي يبقى من الإنسان حين يُوضع قلبه أمام النار؟

ليست سورة البروج حكايةً قديمةً عن مؤمنين مضوا،
ولا سجلًا تاريخيًا لحادثةٍ أُغلقت عليها أبواب الزمن؛ إنها
سورةٌ تُعيد تعريف النصر والهزيمة، وتضع الإنسان أمام
السؤال الذي تهرب منه نفسه كلما استراحت إلى سلامة
الجسد: ماذا يبقى منك حين يُنتزع منك كل شيء، ولا
يُترك لك إلا قلبك وعقيدتك؟ ماذا تصنع حين تتحول الحياة
إلى مساومةٍ قاسية: أن تبقى حيًا بشرط أن تتخلى عن

حقيقتك، أو أن تخسر جسدك كي لا تخسر المعنى الذي
من أجله يستحق الجسد أن يعيش؟

تبدأ السورة بالسماء، قبل أن تحدثنا عن الحفرة؛
وبالبروج العالية، قبل أن نتقلنا إلى الأخدود السحيق؛
وباليوم الموعود، قبل أن تعرض ذلك اليوم الأرضي الذي
جلس فيه الجبارون حول النار يراقبون احتراق المؤمنين.
وكأنها منذ افتتاحها تريد أن تتنزع المشهد من قبضة
الأرض، فلا نراه بعيون الجلال الذي ظن أنه مالك الساعة
والمصير، بل نراه من علٍ، من سماءٍ لا تغيب عنها جريمة،
ومن وعدٍ لا يُخلف، ومن علمٍ يحيط بما خفي وما ظهر،
ومن قدرةٍ تستطيع أن تعيد ترتيب النتائج بعد أن نتوهم
القوة أن كل شيء قد انتهى.

إن أول ما تصنعه سورة البروج في القلب أنها تغيّر زاوية النظر. فالمشهد في ظاهره مأساة: نارٌ تلتهم أجساداً ضعيفة، وجبابةٌ يجلسون آمنين يتفرجون، ومؤمنون لا يملكون سلاحاً يدفع عنهم العذاب. غير أن القرآن لا يتركنا أسرى لهذا الظاهر؛ إنه يفتح نافذة الغيب، فإذا الذين ظنهم الناس مهزومين قد ثبتوا في مقام الشهادة، وإذا الذين جلسوا على حافة الأخدود منتصرين قد صاروا هم المحاصرين بلعنة الله ووعيده، وإذا النار التي أشعلوها في الأرض قد ارتدت عليهم ناراً في الآخرة، وإذا اللحظة التي أرادوا بها إخماد الإيمان قد تحولت إلى آيةٍ خالدةٍ يتلوها المؤمنون إلى قيام الساعة.

وهنا تقع المفارقة الكبرى التي يقوم عليها البناء النفسي والفكري للسورة: قد تُحرق الأجساد ولا يُهزم أصحابها، وقد تبقى العروش قائمةً ويكون أهلها قد سقطوا من ميزان

الحقيقة. فالهزيمة ليست أن يؤذى المؤمن، وإنما أن ينجح الأذى في انتزاع الإيمان من قلبه؛ والنصر ليس أن ينجو الجسد دائماً، وإنما أن تعجز الفتنة عن شراء الضمير، وأن يصل الإنسان إلى آخر حدود الألم وهو ما يزال يعرف ربه، ويعرف نفسه، ويرفض أن يمنح الطاغية الكلمة التي يريدّها.

ولذلك لم تقل السورة إن أصحاب الأخدود عذبوا المؤمنين لجرم ارتكبوه، أو لعدوانٍ بدأوا به، أو لخطرٍ ماديٍّ مثله، وإنما كشفت الجريمة في صفائها الوحشي: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. كان ذنبهم أن قلوبهم لم تعد قابلةً للاستعباد؛ آمنوا بالله العزيز، فلم يعودوا يرون عزةً مستقلةً لأحدٍ سواه، وآمنوا بالله الحميد، فعرفوا أن ربهم مستحق للحمد حتى حين يمر الطريق إليه فوق الجمر. لقد أدرك الطغيان أن المؤمن الذي تحرر باطنه لا يمكن امتلاكه كاملاً، وأن الجسد الذي

يسكنه قلب موصول بالله يظل خارج سيطرة الجلال، ولو
أحاطته النار من كل جانب.

ومن هنا لا تتحدث السورة عن صراع قوة بقوة فحسب،
بل عن صراع رؤيتين للإنسان والوجود: رؤية الطاغية الذي
يظن أن امتلاك الجسد يعني امتلاك صاحبه، ورؤية الإيمان
التي تقرر أن للإنسان سرًّا لا تصل إليه السلاسل، وحصناً
لا تقتحمه النار، وموضعاً في أعماقه لا يملكه إلا الله.
يستطيع الطاغية أن يضيق المكان، لكنه لا يستطيع أن يمنع
الروح من الاتساع؛ يستطيع أن يحفر الأخدود في الأرض،
لكنه لا يستطيع أن يحفره في اليقين؛ يستطيع أن يشعل
النار حول المؤمن، لكنه يعجز عن إطفاء النور الذي
اشتعل في داخله.

وسوف يقوم تدبرنا لهذه السورة على قراءة متكاملة تبدأ من دلالة اللفظ وسياقه ونظمه، ثم تنتقل إلى ما تفتحه الآيات من آفاقٍ إيمانية وإنسانية وفكرية، من غير أن نحمل النص ما لا يحتمل، أو نحول التدبر إلى خيالٍ منفصل عن مراد الوحي. فالتأمل الحق لا يبتعد عن النص، بل يقترب منه حتى يسمع نبضه؛ ولا يستبدل التفسير بالإحساس، بل يجعل المعرفة جسراً إلى حياة القلب، ويجمع بين هداية المعنى وحرارة الأثر.

وسنتأمل القسم الذي افتتحت به السورة: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝﴾، لنرى كيف تُستدعى السماء والزمن والشهادة قبل عرض الجريمة، وكيف يُحاط الحدث الأرضي بشهود الكون والآخرة. ثم ندخل إلى مشهد الأخدود، لا لنستعيد قسوته فحسب، بل لنكشف طبيعة الطغيان حين يتحول التعذيب

عنده إلى فرجة، وكيف يموت في الإنسان شيء عظيم
حين يجلس مطمئنًا يشاهد ألم الآخرين.

ثم نقف طويلاً عند مركز السورة: الإيمان بالله العزيز
الحميد، مالك السماوات والأرض، الشهيد على كل شيء؛
فهذه الأسماء والصفات ليست تعقيباً منفصلاً عن المحنة،
وإنما هي البناء الذي ثبتت عليه قلوب المؤمنين. فالإيمان
بالعزيز ينزع عن الطاغية وهم العزة، والإيمان بالحميد يمنع
الآلم من تشويه صورة الله في القلب، والإيمان بالملك يرد
الوجود كله إلى صاحبه، والإيمان بالشهادة الإلهية يواسي
المظلوم حين يغيب شهود الأرض أو يبيعون شهادتهم.

وسوف تتدبر كذلك ذلك الباب المدهش الذي لم تغلقه
السورة حتى في وجه القتلة: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾. فما أوسع
رحمة الله التي تذكر التوبة بعد إحراق المؤمنين، وما أشد

مسؤولية الإنسان حين يُفتح له باب الرجوع ثم يصر على
جريمته! إن السورة لا تُمِيع العدل باسم الرحمة، ولا تغلق
الرحمة باسم العدل؛ بل تمنح كل حقيقة مقامها: توبةٌ
تستطيع أن تنقذ المجرم إن عاد صادقاً، وعذابٌ لا يفلت
منه إن أصر واستكبر.

بعد ذلك سننتقل من نار الأخدود إلى جنات المؤمنين،
ومن فعل البطش البشري إلى بطش الله، ومن قصة
أصحاب الأخدود إلى مصير فرعون وثمود، لنرى أن
الطغيان وإن تعددت أسماؤه وأمكنته وأدواته، فإنه يكرر
الوهم نفسه: يظن أن سلطانه يخرجُه من قبضة الله. لكن
السورة تحسم المسألة بعبارة قصيرة تهز كل عرش: ﴿إِنَّ
بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ فالذي بدأ الخلق قادر على إعادته،
والذي يمهل الجبار لا يهمله، والذي يحيط بكل شيء لا
يستطيع الظالم أن يفر من ملكه إلى أرضٍ ليست له.

وتبلغ السورة ذروتها حين تجمع بين الجلال والحنان في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. فرب المؤمنين الذين أحرقوا ليس قوة قاهرة فحسب، بل هو الودود؛ يحب أوليائه، ويرعاهم، ولا يعني وقوع البلاء أنهم سقطوا من عنايته. وهنا تصحح السورة واحداً من أخطر أوهامنا: أن محبة الله لا تعني دائماً إعفاءنا من الألم، ولكنها تعني ألا يكون الألم عبثاً، وألا تُترك فيه وحدنا، وألا تضيع منه دمة، وألا تكون نهاية الذين أحبه الله حفرةً من نار، بل فوزاً كبيراً وراء حجاب المشهد العاجل.

ثم تحتتم السورة بالقرآن: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ. وكأن الرحلة التي بدأت بسماء ذات بروج تنتهي بكلامٍ محفوظ، لتؤكد أن الحقيقة التي مات المؤمنون من أجلها ليست فكرةً طارئةً يمكن أن تطفئها نار، ولا كلمةً

بشريةً تستطيع السلطة محوها؛ إنها وحيٌ في لوح محفوظ. قد يحرقون حامل الرسالة، لكنهم لا يبلغون الرسالة؛ وقد يقتلون الصوت في لحظة، لكن الكلمة التي تكفل الله بحفظها تعود بعد قرون لتروي للناس خبر الصوت والقاتل والنار.

سورة البروج، بهذا المعنى، ليست سورة الموت في الأخدود، بل سورة الحياة التي عجز الأخدود عن ابتلاعها؛ وليست مرثيةً للضحايا، بل إعلاناً لانهيار المعيار الذي يقيس النصر بسلامة الأبدان وحدها؛ وليست خطاباً يدفع المؤمن إلى طلب البلاء، فالشرع يأمر بالعافية ويدفع الظلم، لكنها تربيته—إذا نزل البلاء ولم يبق إلا الثبات—على ألا يدفع حياته ثمناً للاحتفاظ بأنفاسه، ثم يخسر السبب الذي جعل للحياة قيمة.

إنها سورة الذين لم يجدوا طريقاً خارج النار، ففتح الله لهم طريقاً من خلالها إلى الجنة؛ وسورة الذين ظنوا أنهم يتفرجون على نهاية الإيمان، فإذا هم يصنعون بأيديهم مشهد خلوده؛ وسورة كل قلبٍ يمر به زمان يبدو فيه الباطل مكتمل القوة، والحق أعزل إلا من يقينه. عندئذ تأتيه هذه الآيات لتهمس في أعماقه: لا تحكم على المعركة من حافة الأخدود، ولا تقرأ النهاية بعين اللحظة، ولا تظن أن صمت السماء غياب؛ ففوق النار ربُّ شهيد، وخلف الأمل يومٌ موعود، وبعد الفتنة فوزٌ كبير، وفي أعلى الوجود عرشٌ لا تهتز عدالته حين تضطرب عروش الأرض.

ومن هنا تبدأ رحلتنا: من البروج العالية إلى الأخدود العميق، ومن شهود الجريمة إلى شهادة الله، ومن نار الفتنة إلى جنة الفوز، ومن بطش المخلوق المحدود إلى سلطان

الخالق المحيط، ومن جسدٍ أحرقه الطغيان إلى إيمانٍ لم
تستطع نيران الأرض أن تمس جوهره.
لأن النار قد تبلغ الجسد، ولكنها لا تبلغ القلب إلا إذا
فتح لها بابه.

الفصل الأول

السَّمَاءُ الَّتِي تَرَى: حِينَ يُسْتَدْعَى
الْكَوْنُ لِلشَّهَادَةِ

قال الله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝
وَشَهِيدٍ وَشَهِيدٍ ۝ وَمَشْهُودٍ ۝﴾

لم تبدأ سورة البروج من الأخدود، مع أن الأخدود هو
المشهد الأكثر حضوراً في الذاكرة؛ ولم تبدأ بالنار، مع أن
النار هي أداة الجريمة؛ ولم تبدأ بالمؤمنين الذين أُلْقُوا فيها، مع
أنهم موضع الألم والبطولة؛ بل بدأت بالسماء، كأن أول ما
يحتاج إليه القلب حين يرى بطش الأرض أن يرفع رأسه،

وَأَنْ يُخْرِجَ بِبَصَرِهِ مِنْ ضَيْقِ الْحَفْرَةِ إِلَى سَعَةِ الْكُونِ، وَمَنْ
سلطان البشر المحدود إلى ملك الله الذي لا تحده الجهات
ولا تنفلت من علمه الحوادث.

فالأخدود منخفضٌ في الأرض، والبروج مرتفعةٌ في
السماء، وبين هذا الانخفاض وذلك الارتفاع تتحدد زاوية
الرؤية التي ستقودنا في السورة كلها. الطغاة يحفرون إلى
أسفل، والوحي يرفع القلب إلى أعلى؛ هم يريدون أن
يحصروا الإنسان في لحظته الضيقة، في ألمه القريب، في
جسده المحاصر، والقرآن يفتح أمامه المشهد الكوني الكبير
حتى لا يصدّق أن النار التي أمامه هي الحقيقة كلها، أو أن
اليد التي تدفعه إليها هي اليد العليا في الوجود.

إن الإنسان حين تشتد عليه المحنة تضيق رؤيته قبل أن
يضيق مكانه؛ فلا يرى إلا ما يهدده، ولا يسمع إلا صوت

الخطر، ولا يتصور إلا النهاية التي يرسمها له خوفه. ولذلك يبدأ القرآن بتوسيع الوعي قبل مواساة القلب؛ لأن النفس إذا نظرت إلى البلاء وحده حسبته الوجود كله، أما إذا وضعته تحت السماء، وربطته باليوم الموعود، واستحضرت الشاهد والمشهود، أدركت أن ما تراه فصلٌ واحد، وأن الحكم على القصة قبل اكتمالها ظلمٌ آخر يضاف إلى ظلم الجلاد.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾

يقسم الله بالسماء ذات البروج؛ تلك السماء المرفوعة، المحكمة، المزينة بمنازلها ومعالمها العظيمة. والبروج في أصل دلالتها تحمل معنى الظهور والارتفاع؛ ومنه البرج لعلوه وبروزه، فكأن القسم يلفت النظر إلى بناءٍ كوني ظاهر

المعالم، ثابت النظام، لا تحكمه الفوضى ولا تتقاذفه المصادفات.

وليس القسم القرآني مجرد توكيدٍ لفظي، بل هو استدعاء للآية الكونية كي تفتح في النفس باباً إلى معناها. فالسماوات ذات البروج تقول بصمتها المهيّب: إن هذا الوجود ليس متروكاً، وإن الذي أحكم مسارات الأجرام لن يعجزه اضطراب الأرض، وإن الذي أقام في الفضاء هذا النظام البديع لا تختلط عليه مواقع البشر ولا تضعع عنده حقوقهم.

كانت النار في الأخدود تبدو للفئة المؤمنة كأنها مركز الكون؛ فالألم بطبيعته يستولي على الشعور ويطنغى على ما عداه. لكن السورة تنقل مركز الرؤية من النار إلى السماء، ومن الفاعل البشري إلى المدبر الإلهي، ومن الحدث العابر إلى النظام الذي يحيط به. فالذين أشعلوا الأخدود يملكون

مساحة صغيرة من الأرض، أما السماء ذات البروج فهي لله؛ والذين يملكون ناراً محدودة الوقود والزمن لا يملكون شمساً ولا نجماً، ولا يملكون ميلاد يوم أو أفول ليلة، ولا يملكون أن يؤخروا أجلاً أو يقدموا حساباً.

وكل طاغية إنما ينجح أولاً في صناعة الوهم قبل أن ينجح في صناعة الخوف؛ يوهم ضحيته أنه لا يرى في الأفق إلا سلطانه، وأنه لا توجد خلف جدران السجن سماء، ولا وراء زمن القهريوم آخر، ولا فوق يد الجلاّد يد تقهرها. فإذا امتلأ قلب المظلوم بهذا الوهم سقط قبل أن يُضرب، واستسلم قبل أن تُوثق يداه. ولهذا يحطم القرآن جغرافية الطغيان منذ الكلمة الأولى، فيرفع السماء فوق الأخدود، ويقيم البروج فوق عروش العابرين، ويذكر القلب بأن حدود الطاغية تنتهي حيث تبدأ حقيقة الإيمان.

إن السماء هنا لا تمنح المؤمن مهرباً خيالياً من واقعه، بل تمنحه المقياس الصحيح لفهمه. فالقرآن لا يقول له إن النار ليست ناراً، ولا إن الألم وهم، ولا إن الظلم مشهد يسير لا يستحق الحزن؛ وإنما يقول له: لا تجعل الحقيقة الجزئية تحجب عنك الحقيقة الكلية. النار موجودة، ولكن رب النار موجود؛ والظلم واقع، ولكن الحكم الأخير لم يقع بعد؛ والمشهد موجه، ولكنه ليس خاتمة المشاهد.

وحين يتأمل المؤمن السماء يدرك أن الثبات ليس مخاطرةً في كونٍ فوضوي، بل عبودية في كونٍ يملكه الله. فلو كان الوجود متروكاً للمصادفة، لكان إلقاء النفس في سبيل الحق ضياعاً لا معنى له؛ أما إذا كان وراء الكون ربٌّ عليم حكيم شهيد، فإن كل ألم يصير محفوظاً في علمه، وكل تضحية تدخل في ميزانه، وكل نفس تخرج في سبيله تنتقل من ملكه في الأرض إلى ملكه في الآخرة.

ولعل في وصف السماء بأنها ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ إشعاراً بالقوة والثبات والعلو؛ فالبروج معالم شامخة توحى بالحصانة. وفي الجهة المقابلة حفر الطغاة أخدوداً، والحفرة دائماً رمز انخفاضٍ واحتواء؛ يريدون للمؤمن أن يكون في القاع، وأن يشعر أنه محاط لا منفذ له. لكن السورة تقلب المعنى: المؤمن وإن كان جسده في الأخدود فإن قلبه متصل بالبروج، والطاغية وإن جلس عالياً على حافة الحفرة فهو ساقط في ميزان الله. ليست العبرة بالمكان الذي يقف فيه الجسد، بل بالجهة التي ينتسب إليها القلب.

كم من إنسان بدا مرتفعاً لأنه امتلك منصباً، وهو في الحقيقة يتهوى في هاوية نفسه؛ وكم من إنسان بدا محاصراً خلف قيدٍ أو جدار، وروحه تطوف في آفاقٍ لا يستطيع سجنه بلوغها. إن الارتفاع القرآني ليس علو الجسد على الجسد، وإنما علو المعنى على الغريزة، وعلو العقيدة على

الخوف، وعلو الإنسان على رغبته العمياء في البقاء بأي
ثمن.

فالذين حفروا الأخدود اختاروا لأنفسهم أخدوداً
أخلاقياً قبل أن يحفروه في الأرض؛ انحدروا في داخلهم
حتى صار احتراق الإنسان أمام أعينهم مشهداً يستحق
الجلوس والتفرج. أما الذين ألقوا فيه فقد ارتفعوا؛ لأنهم
حافظوا في لحظة الابتلاء على أثن ما يجعل الإنسان إنساناً:
أن يقول للباطل لا، ولو كانت النار هي جواب الباطل
الأخير.

﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾

بعد المكان الكوني الواسع تأتي حركة الزمن: ﴿وَالْيَوْمَ
الْمَوْعُودِ﴾؛ يوم القيامة الذي وعد الله بمجيئه، يوم تنكشف

فيه الحقائق، وتوضع الموازين، وتُسترد الحقوق، ويخرج كل فعل من ضلاله إلى النور.

وهذه الآية القصيرة تنقذ العقل من طغيان اللحظة. فالإنسان كثيراً ما يحاكم عدالة الوجود من مقطع صغير من الزمن؛ يرى ظالماً لم يُعاقب، ومظلوماً مات قبل أن يسترد حقه، فيظن أن القصة قد انتهت وأن الميزان قد اختل. لكنه لا ينتبه إلى أنه يقرأ صفحةً من كتاب لم تُطَوَّ فصوله بعد، ثم يصدر حكمه على النهاية.

واليوم الموعد ليس تعويضاً نفسياً اخترعه الضعفاء ليحتملوا عجزهم، بل هو ضرورة تقتضيها حكمة الله وعدله وخبره الصادق. فهذه الدنيا، بضيق زمنها وتشابك أسبابها، لا تتسع دائماً لإظهار الجزاء كاملاً؛ كم من جريمة تتجاوز آثارها عمر صاحبها، وكم من كلمة شرٍ تواصل إفساد

الأجيال بعد موت قائلها، وكم من تضحيةٍ لا تعرف
الأرض مقدارها! لذلك لا بد من يوم تتسع فيه المحكمة
لكل التفاصيل، ويُستحضر فيه كل أثر، ويقرأ فيه الإنسان
كتاباً لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

إن أصحاب الأخدود عاشوا في يومين متقابلين: يومٍ
حاضرٍ يملكه الطغاة في الظاهر، ويومٍ موعودٍ يملكه الله حكماً
وملْكاً وظهوراً. في يوم الأخدود جلس المجرمون وحُمِلَ
المؤمنون إلى النار؛ وفي اليوم الموعود تتبدل المواقع، وينقطع
سلطان الجسد والسلاح، ويقف الجميع أفراداً بين يدي من
لا تخفى عليه خافية.

وكان المطلوب من المؤمنين أن يختاروا: أيُّ اليومين
أحق أن تُبنى عليه الحياة؟ أاليوم العابر الذي يرتفع فيه
صوت الجلال، أم اليوم الموعود الذي تتكلم فيه الأعمال

وتتطرق فيه الجوارح وتتكشف فيه السرائر؟ واليقين إنما يظهر حين يتغلب المستقبل الذي وعد الله به على الحاضر الذي تضغط به الحواس. فالمؤمن لا ينكر ما أمامه، لكنه لا يسمح لما أمامه أن يحو ما أخبره الله أنه آت.

إن أكبر قوة تمنحها الآخرة للإنسان أنها تحرره من ابتزاز اللحظة. فمن ظن أن الدنيا هي الفرصة الوحيدة، وأن الموت خسارة مطلقة، صار قابلاً لأن يبيع كل شيء كي يؤجل نهايته قليلاً؛ أما من أيقن أن الموت عبور، وأن خلفه يوماً موعوداً، فقد خرج من دائرة التهديد التي يرسمها الطغاة. يستطيعون أن يقولوا له: سننهي حياتك، لكنه يسمع في أعماقه أن الحياة التي يهددونه بفقدائها ليست إلا أول الطريق.

وليسَ هذه دعوةٌ إلى التَّهوين من الدماء، ولا إلى تركِ
مقاومة الظلم، ولا إلى صناعة علاقةٍ عديمة بالحياة؛ فالحياة
أمانة، وحفظها مقصد، ودفع العدوان واجب بحسب
القدرة. لكنها دعوة إلى ألا تتحول الحياة من أمانة تُصان
إلى صنمٍ يُعبد، وإلى ألا يكون الحرص عليها باباً يُدخل منه
الطغيان إلى ضمير الإنسان. نحن مأمورون بطلب العافية،
فإذا فُرضت الفتنة ولم يبق بين المرء وبين السقوط إلا
صبره، علَّته سورة البروج أن خسارة الدنيا أهون من
خسارة نفسه أمام الله.

واليوم الموعود يعيد للزمن أخلاقه؛ فلا يعود الوقت
مجرد ساعات تمضي، بل طريقاً يتحرك نحو موعد. كل لحظة
تقترب بنا من ذلك اليوم، وكل فعل نحمله معنا إليه، وكل
مظلمة تؤجلها محاكم الأرض تجد موعدها هناك. ليس في
الكون ملفٌ مغلق لأن صاحبه قوي، ولا قضية سقطت

بالتقادم، ولا دم صار مجهولاً لأن القاتل محاذيره؛ فهناك
يومٌ موعود، وتسميته بالموعود تكفي لتمام القلب ثقةً بأن
مجيئه ليس احتمالاً، بل حقٌّ ضمنه وعد الله.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

ثم يأتي القسم الثالث في صياغة واسعة موحية: ﴿وَشَاهِدٍ
وَمَشْهُودٍ﴾. وقد تعددت أقوال المفسرين في تعيين الشاهد
والمشهود، واتساع اللفظ يسمح بأن يستحضر القلب معنى
الشهادة كله دون جزمٍ بما لم يجزم به النص. فثمة شاهد
يرى ويؤدي الشهادة، وثمة مشهود يقع عليه النظر وتكشف
حقيقته؛ وكأن الوجود كله ينتقل من حال الخفاء إلى
ساحة الظهور.

ويتناسق هذا المعنى مع قلب السورة؛ لأن جريمة
الأخذود قامت في ظاهرها أمام شهود. لم يكن القتلة

يَخْتَبِئُونَ مِنْ فَعْلَتِهِمْ، بَلْ كَانُوا ﴿عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، وَكَانُوا ﴿عَلَىٰ
مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. شَاهَدُوا الْجَرِيمَةَ، لَكِنْ
شَهَادَتِهِمْ لَمْ تَمْنَعْهَا؛ بَلْ لَعَلَّهَا كَانَتْ جِزْءًا مِنَ التَّلَذُّذِ بِالقُوَّةِ
وَإِذْلالِ الضَّحَايَا. وَمِنْ هُنَا تَسْتَدْعِي السُّورَةُ مَعْنَى شَهَادَةٍ
أُخْرَى لَا تُشَبِّهُ شُهُودَهُمْ: شَهَادَةُ تَحْفِظِ مَا أَرَادُوا تَحْوِيلَهُ إِلَى
فِرْجَةٍ، وَتَرَدُّ عَلَى الْمُتَفَرِّجِينَ بِأَنَّهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ صَارُوا
مَشْهُودِينَ.

لَقَدْ جَلَسُوا لِشَاهَدُونَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
يَشَاهِدُهُمْ. ظَنُّوا أَنَّ اتِّجَاهَ النَّظَرِ وَاحِدًا: مِنْ مَقَاعِدِ الْقُوَّةِ إِلَى
أَجْسَادِ الضَّحَايَا، لَكِنَّ الْوَحْيَ يَكْشِفُ اتِّجَاهًا آخَرَ لِلنَّظَرِ مِنْ
فَوْقَهُمْ، يَحِيطُ بِالْجِلَادِ وَالنَّارِ وَالْجَالِسِ وَالْمَحْرُوقِ، وَيَسْجُلُ مَا
فَعَلَتِ الْأَيْدِي وَمَا أَخْفَتَهُ الصُّدُورُ. وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي ظَنُّوا فِيهَا
أَنَّهُمْ وَحْدَهُمْ أَصْحَابُ الْعَيْنِ الْمَفْتُوحَةِ، كَانُوا هُمْ تَحْتَ عَيْنِ
الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي لَا يَغْفُلُ وَلَا يَنْسَى.

وهذا من أعظم ما يثبت الإنسان حين تخذله شهادة
البشر: أن غياب الشهود الأمناء لا يعني غياب الحقيقة،
وأن تواطؤ الناس لا يبدل طبيعة الجريمة، وأن الرواية التي
يكتبها المنتصر بقوته قد تنتشر زمنًا، لكنها لا تستطيع تغيير
السجل المحفوظ عند الله. قد يسمي الطاغية القتل إصلاحًا،
والسجن حمايةً، والتعذيب ضرورةً، ويملاً الآفاق بخطابه،
لكن الأسماء التي يضعها المجرم على أفعاله لا تنتقل معها
إلى ميزان الله؛ هناك تسقط اللغة المزورة، ويسمى الشيء
باسمه الذي يستحقه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَشَٰهِدٍ مَّشْهُودٍ﴾ مواساة لكل ألم
وقع بعيداً عن العيون، ولكل مظلوم لم يجد من يصدقه،
ولكل إنسان شوّهت قصته حتى بدا مذنباً وهو المجني عليه.
إنك لا تحتاج إلى أن يراك العالم كله كي يكون وجعك
معلوماً، ولا إلى أن يعترف بك المعتدي كي يكون حقك

حقًا. حسبك أن الواقعة لم تخرج لحظةً واحدةً من علم الله،
وأن الذي رآها لم ير ظاهرها وحده، بل رأى الاضطراب
في قلبك، والدمعة التي أخفيها، والكلمة التي ابتلعها،
والمقاومة الصامتة التي لم يصفق لها أحد.

لكن معنى الشهادة لا يواسي المظلوم فقط؛ إنه يريبه
ويراقبه أيضًا. فالذي يؤمن أنه مشهود لا يجعل مظلوميته
إذناً له أن يظلم، ولا يتخذ أله مبرراً لفساد قلبه. إن عين الله
التي ترى ما يفعل به ترى كذلك ما يفعله، والميزان الذي
سينصفه من خصمه سيحاسبه على استجابته ونيته
وحدوده. وبهذا يبقى الإيمان بالرقابة الإلهية قوةً أخلاقية لا
مجرد عزاء؛ يحمي الإنسان من الظالم، ويحميه كذلك من أن
يتحول تحت ضغط الجراح إلى صورة أخرى منه.

وفي الآيات الثلاث بناء متكامل يعيد للنفس توازنها:
 سماءٌ ذات بروج توسع المكان، ويومٌ موعود يوسع الزمن،
 وشاهدٌ ومشهود يملآن المكان والزمان بالرقابة والمعنى. لم
 تعد الحادثة نقطة ضائعة في أرض مجهولة، ولا لحظة منسية
 في تاريخ طويل، ولا جريمة بلا شاهد؛ إنها واقعة تحت سماء
 الله، سائرة إلى يوم الله، محاطة بشهادة لا تُمحي.

وهذه هي الترتيبة التي تسبق مشهد الأخدود؛ لأن رؤية
 النار دون هذه المقدمات قد تملأ القلب رعباً ويأساً، أما
 رؤيتها بعد السماء واليوم والشهادة فتجعلنا نقرأها على
 حقيقتها: ناراً محدودةً داخل ملك الله، وجريمةٌ مؤجلةٌ إلى
 يوم الله، وفعلاً واقعاً تحت شهادة الله.

ليس الطغيان قوياً لأنه يملك النار، بل ضعيفٌ لأنه لا
 يملك مــــا بــــعد النــــار.

الفصل الثاني

أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ: حِينَ يَتَحَوَّلُ الْإِنْسَانُ
إِلَى مُتَفَرِّجٍ عَلَى الْعَذَابِ

قال الله تعالى:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿١﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ
﴿٢﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٣﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ
بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

بعد أن رفعت السورة أبصارنا إلى السماء، وربطت
وعينا باليوم الموعود، وأحاطت الوجود بمعنى الشهادة،
أخذتنا إلى الحفرة التي حفرها الطغيان في الأرض، وإلى
الحفرة الأشد ظلمةً التي حفرها في النفس الإنسانية؛ فما

الأخدود الجغرافي إلا صورة ظاهرة لأخدودٍ أعمق تشكّل
في ضمائر أولئك الذين استطاعوا أن يجلسوا مطمئنين أمام
عذاب البشر.

إنها آيات قليلة الكلمات، لكنها ترسم مشهداً كاملاً
تتجمع فيه عناصر الجريمة: حفرة عميقة، ونارٌ كثيرة الوقود،
وجلادون جالسون، ومؤمنون يُعذَّبون، وعيونٌ تشاهد ما
يجري دون أن تتحرك فيها بقية رحمة. لا يطيل القرآن
وصف اللهب، ولا ينقل إلينا صرخات الضحايا، ولا
يستدر عاطفتنا بتفاصيل الجسد المحترق؛ لأن فظاعة المشهد
لا تحتاج إلى زخرفة، ولأن الصمت القرآني حول بعض
التفاصيل قد يكون أبلغ من الإسهاب فيها. يكفي أن يقول:
﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾، حتى تتولى الخيلة إدراك ما وراء
العبرة، ويبقى النص مصوناً عن تحويل الألم الإنساني إلى
مادة للفرجة.

﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾

افتتحت الآيات بالدعاء على أصحاب الأخدود بالهلاك واللعن، أو بالإخبار عن استحقاقهم لذلك: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾. وقبل أن تذكر السورة ضحايا النار، أصدرت حكمها على صانعيها؛ فالذين بدوا في المشهد أحياء أقوياء قد حكم عليهم الوحي بالهلاك، والذين ألقوا في النار ولم تُذكر أسماءهم قد حفظ إيمانهم في كلام الله.

إنه انقلابٌ حاسم في الأسماء والنتائج. الطاغية يريد أن يكتب الرواية كما يشاء: هو المنتصر، والمقتول مهزوم، وهو صاحب الحق في تعريف ما حدث، والضحية مجرد رقم ينتهي بانتها جسده. لكن القرآن ينتزع منه سلطة التسمية؛ فلا يسميه حاكماً ولا منتصراً، بل يجعله تابعاً للجريمة التي ارتكبتها: أصحاب الأخدود. لقد أصبحت الحفرة هويتهم،

وصار فعلهم اسماً يلاحقهم، واختفت ألقابهم التي كانوا يتعاضمون بها، فلم يبق منهم إلا الأثر الذي تركوه في الأرض والعار الذي حملوه إلى التاريخ.

وهكذا يفعل القرآن بالطغاة: يجردهم من الزينة التي صنعوها حول أنفسهم، ويردهم إلى جوهر أفعالهم. قد يملأ الحاكم أيامه بالألقاب، ويحيط نفسه بصور الهيبة، ويبني القصور والتماثيل، لكن التاريخ الأخلاقي لا يحتفظ دائماً بما كان يحب أن يُسمى به؛ بل قد يختصر حياته كلها في سجنٍ بناه، أو دمٍ سفكه، أو أخدودٍ حفره.

وفي التعبير ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ ملازمةٌ مرعبة بين الجناة وجريمتهم؛ فالصاحب من اقترن بصاحبه وطال ارتباطه به، وكأن الأخدود لم يعد حفرةً غادروها بعد انطفاء نارها، بل صار شيئاً يصحبهم. يحفر الإنسان أحياناً

حفرةً لغيره، ثم يكتشف متأخراً أنه كان يحفر مصيره؛
يشعل ناراً ليحرق بها خصمه، فإذا دخانها قد سود روحه
قبل أن يمس جسد المظلوم.

والآية لا تمنحنا أسماء القتلة ولا عددهم ولا الموقع
التفصيلي للأخدود؛ لأن المقصود أوسع من أن يُحبس في
اسمٍ وزمان. لقد جرد القرآن الواقعة من بعض حدودها
التاريخية كي تبقى نموذجاً يتكرر كلما اجتمعت قوةٌ متجبرة
وعقيدةٌ تأبى الانحاء. فالأخدود ليس حفرةً واحدة في
التاريخ؛ إنه منطقٌ يعود بأشكال مختلفة: قد يكون ناراً، وقد
يكون سجنًا، وقد يكون تعذيباً أو تجويعاً أو تشريداً أو
محاصرةً للإنسان في رزقه وكرامته، لا لذنْبٍ إلا أن ضميره
لم يقبل أن يسبح بحمد القوة المتغلبة.

والانتفاع بهذه الدلالة لا يعني أن نذيب الحادثة في الرمز، أو نجعل كل خلاف أخذوداً وكل خصومة اضطهاداً؛ فذلك يفرغ المفهوم من هيئته ويجعل الإنسان يمنح نفسه منزلة الشهداء كلما خالفه أحد. أصحاب الأخدود ارتكبوا جريمةً واضحةً بحق مؤمنين ثبتوا على التوحيد. لكن بقاء النموذج القرآني مفتوحاً يعلننا أن نراقب جذور الجريمة قبل أن تبلغ ناراها: احتقار الإنسان، وتجريم الضمير، وتحويل الاختلاف إلى مبرر للاستئصال، ومنح السلطة حق الدخول إلى أعماق القلوب.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾

ثم يصف القرآن الأخدود بالنار، ويصف النار بأنها ﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾؛ أي المتأججة بما أُعد لها من مادةٍ تمدّها وتزيد اشتعالها. ولم تكن هذه النار غضبةً عابرةً انفجرت في

لحظة، بل كانت جريمةٌ جرى الإعداد لها: حُفِر الأُخدود،
وُجِّعَ الوقود، وأُضْرَمَت النار، وُجِّهَزَ المكان لاستقبال
المؤمنين.

وهذه المسافة بين الفكرة والتنفيذ تكشف عمق السقوط؛
فقد كان أمام الجناة وقتٌ طويل ليتراجعوا. في كل ضربةٍ
حُفِرَت الأرض كانت هناك فرصة لأن يستيقظ الضمير،
وفي كل قطعة وقود حملوها إلى النار كان يمكن ليدٍ أن
تتوقف، وفي كل لحظة انتظروا فيها اشتعال اللهب كان
يمكن لأحدهم أن يسأل: ما الذي نصنعه بإنسانٍ لم يعتد
علينا؟

لكن الجريمة حين تصبح مشروع جماعة تتوزع مسؤوليتها
بين الأيدي، فيخف شعور كل فردٍ بفضاعة ما يصنع. هذا
يحفر ولا يُلقِي أحداً في النار، وذاك يجمع الوقود ولا يشعل،

وثالث يشعل ولا يدفع الضحية، ورابع يحرس المكان،
 وخامس يجلس ليشاهد؛ وكل واحد منهم يستطيع أن
 يخدع نفسه بأنه لم يرتكب الجريمة كاملة. لكن القرآن
 جمعهم في اسمٍ واحد: ﴿أَصْحَابُ الْأُخُودِ﴾؛ لأن
 الاشتراك في صناعة الظلم لا تسقطه تجزئة الأدوار.

فالجريمة الكبرى نادراً ما تصنعها يدٌ واحدة؛ تحتاج إلى
 من يأمر، ومن يخطط، ومن ينفذ، ومن يبرر، ومن
 يصمت، ومن يحول المشهد إلى خيرٍ بارد، ومن يقنع المجتمع
 بأن الضحايا يستحقون ما أصابهم. وقد لا يحمل بعض
 هؤلاء أداة القتل، لكنهم يحملون المعنى الذي جعل القتل
 ممكناً. إن الوقود الذي نتأجج به نيران الطغيان ليس خشباً
 وزيتاً فحسب؛ قد يكون كلمة تحريض، أو فتوى مزورة، أو
 كذبةٌ تتكرر حتى يُنزع عن الضحية وجهها الإنساني.

وقبل أن يحرق الطاغية جسد خصمه، يحاول أن يحرق صورته في وعي الناس؛ يصوره خطراً أو خائناً أو كائناً لا يستحق الرحمة، لأن الإنسان السوي لا يستطيع أن يشاهد تعذيب إنسانٍ يشبهه ثم يبقى مطمئناً. لذلك لا بد من نزع الشبه أولاً، وفصل الضحية عن الجماعة الإنسانية، حتى يصبح إحراقها عند المتفرجين إجراءً لا جريمة. وهنا تبدأ نار الأخدود قبل أن تُشعل: تبدأ في اللغة حين تفقد الكلمات عدالتها، وفي الوعي حين يقبل الناس تقسيم البشر إلى دماء محرمة ودماء مباحة لأهواء القوة.

والقرآن حين يقول ﴿ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ يجعلنا نكاد نرى عناية الجناة بإبقاء النار مشتعلة. كانوا يخافون أن تتمد النار، ولم يخافوا أن تتمد الرحمة في قلوبهم؛ كانوا يضيفون الوقود إلى اللهب، بينما كانت إنسانيتهم تنقص في كل مرة. وهذه إحدى مفارقات الشر: قد يزداد الفاعل كفاءةً في

إدارة أدواته، وهو يزداد انهياراً في غايته؛ يتقن إشعال النار، لكنه يعجز عن إضاءة موضع صغير في ضميره.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾

ليست أرفع كلمة في المشهد هي النار وحدها، بل ربما كانت كلمة ﴿قُعُودٌ﴾؛ لأن النار أداة، أما القعود فهو موقفٌ نفسي وأخلاقي. إنهم لم يشعلوا النار ثم انصرفوا نجلاً أو عجزاً عن احتمال ما فعلوا، بل جلسوا عليها؛ في صورة تنضح بالطمأنينة القاسية، وبالفراغ من الرحمة، وبالثقة في أن أحداً لن يحاسبهم.

القعود يوحى بالاستقرار. والإنسان قد يقع في الشر تحت فوران غضب، ثم يرتد إليه وعيه فيرتجف مما صنع؛ أما أن يجلس أمام الألم، وأن يطيل النظر إليه، وأن يرى النار تأكل الأجساد ثم لا تدفعه فطرته إلى النهوض، فهذه

مرحلة أخرى من موت القلب. لقد غادروا حدود الفعل
الوحشي إلى التكيف معه، ومن اقتراف الجريمة إلى
الاستمتاع بثمرتها.

إن الحركة الطبيعية أمام إنسان يحترق هي أن تهب
لإنقاذه، أو أن تصرخ، أو أن تدير وجهك إذا عجزت؛ أما
العودة الهادئ فيعني أن الفطرة نفسها قد أعيد تشكيلها
تحت سلطان الكراهية. لم تعد الضحية في نظرهم إنساناً له
وجه وقلب وأهل وذكريات، بل غدت موضوعاً لتنفيذ
إرادة الحاكم، ومادةً لعرض القوة، ورسالةً يراد بها إخافة
من بقي.

فالطغيان لا يكتفي بإهلاك معارضيهِ؛ إنه يريد جمهوراً
يرى الإهلاك، لأن الرعب الذي يبعثه المشهد في الأحياء
أبقى عنده من موت الضحية نفسها. لذلك كان القعود على

النار جزءاً من هندسة الإرهاب: نحن هنا، والنار هنا، ومن يخالفنا فمصيره هنا. غير أن السورة أفشلت الرسالة التي أرادوا إرسالها؛ فقد أرادوا أن يكون الأخدود إعلاناً لقوتهم، فصار في القرآن إعلاناً للعنهم، وأرادوه درساً في الخضوع، فصار درساً خالداً في الثبات.

وقد يكون المرء بعيداً عن النار، لكنه يجلس عليها بمعنى آخر؛ حين يصل إليه خبر المظلوم فلا يرى فيه إلا مادةً للتسلية أو الجدل، وحين تتحول المآسي في وعيه إلى صورٍ يمر بها دون أن تهتز نفسه، وحين يناقش عدد الضحايا وينسى أن وراء كل رقم حياةً كاملة. إن الاعتياد على صور الألم لا يلغي واجب الرحمة، وكثرة المآسي ليست عذراً لتحجر القلب.

ومع ذلك، لا ينبغي أن نخلط بين عجز الإنسان عن إيقاف كل ظلم وبين الرضا به؛ فليس كل ساكت قادراً، ولا كل بعيد مشاركاً، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها. لكن السورة تدفعنا إلى مساءلة الداخل: هل ما زلنا نتألم لأن إنساناً يُظلم، أم دربنا التكرار على البرود؟ هل نحفظ للضحايا إنسانيتهم، أم نحولهم إلى أرقام نخدم موافقنا؟ وهل نرفض الجريمة لذاتها، أم لا نراها جريمةً إلا إذا وقعت على من نحب؟

الرحمة التي يصنعها القرآن لا تنتقي المظلوم على أساس انتمائه إلى أهوائنا؛ فمتى أصبح الألم مقبولاً لأن ضحيته خصم، بدأ الأخدود الصغير يُحفر في القلب. وقد لا تبلغ اليد ناراً حقيقية، لكن النفس تكون قد تعلمت القعود على حافة العذاب دون اكتراث.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

تكرر الآية معنى حضورهم الواعي: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. لم يكن ما جرى خطأ غير مقصود، ولا نتيجةً جانبية لم يعرفوا بها؛ كانوا حاضرين، يرون، ويعلمون، ويشاهدون أثر أفعالهم لحظةً بلحظة.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُونَ﴾ يضع المسؤولية مباشرةً في أيديهم؛ فلم تقل الآية: ما يقع بالمؤمنين، بصياغةٍ تخفي الفاعل، بل نسبت الفعل إليهم، كأنها تتنزع عن الجريمة كل ستار لغوي. فالظلم يحب المبني للمجهول؛ يُقال: وقعت تجاوزات، وسقط ضحايا، وحدثت أخطاء، كأن الأفعال نزلت من فراغ لا يد وراءه. أما القرآن فيعيد الفعل إلى فاعله: ما يفعلون بالمؤمنين.

وللكلمات في ميدان العدالة وظيفة أخلاقية؛ فالتسمية الدقيقة أول درجات الإنصاف. حين تُخفى اليد التي صنعت الألم، يبدأ محو الضحية مرة أخرى؛ وحين توضع الجريمة في لغة باردة ومحيدة، يحصل القاتل على براءةٍ نخبوية قبل أن يحصل على براءة المحكمة. لذلك يرفض البيان القرآني تميع المسؤولية، ويعرض الجناة وهم يشاهدون ما تفعله أيديهم.

وفي وصف الضحايا بأنهم ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ تكريمٌ عظيم؛ لم يذكر أسماءهم ولا قبائلهم ولا مراتبهم الاجتماعية، بل ذكر الصفة التي من أجلها عذبوا، والصفة التي بها ارتفعوا. أراد الطغاة أن يجردوهم من هويتهم، فأثبت الله لهم أشرف هوية؛ وأرادوا أن يجعلوا إيمانهم تهمةً، فجعله القرآن عنوان الخلود.

إنهم مؤمنون في اللحظة التي تتعرض فيها حقيقة الإيمان لأقصى امتحان. فكثيرٌ من المعاني يسهل حملها حين لا تكلف شيئاً، لكن وزنها يظهر حين يصبح لها ثمن. ولم يكن إيمان هؤلاء عبارةً يرددها اللسان في سعة الأمان، بل حقيقةً استقرت في القلب حتى صار الجسد نفسه مستعداً لأن يدفع ثمنها.

وهنا ينبغي أن نقف بخشوع، لا بحماسةٍ عابرة؛ فقامهم ليس مشهداً يُروى لتزكية أنفسنا، بل مرآة تكشف ضعفنا. من السهل أن نصف شجاعتهم ونحن في العافية، وأن نتخيل أننا كنا سنثبت كما ثبتوا؛ لكن القرآن لا يدعونا إلى ادعاء المقامات، وإنما إلى سؤال الله الثبات، وتربية القلب في أيام السعة حتى لا ينهار في ساعة الضيق. فالثبات الكبير لا يولد غالباً في لحظة النار، بل تصنعه صلواتٌ صغيرة صادقة،

ومجاهدات خفية، ومعرفة بالله تراكت حتى صار اليقين
أثقل في القلب من الخوف.

وتكشف الآية كذلك عن حقيقة نفسية دقيقة: كان
الجنة يشاهدون ما يفعلون، لكنهم لم يشاهدوا حقيقة ما
يفعلون. رأوا أجساداً تُحرق، ولم يروا أرواحاً ترتفع؛ رأوا
نارهم، ولم يروا الجنة؛ رأوا انتهاء الأنفاس، ولم يروا بدء
الخلود؛ رأوا أنفسهم فوق حافة الأخدود، ولم يروا أنهم
تحت سلطان الله.

ليست المشكلة دائماً في غياب البصر، بل في فساد
البصيرة. قد يرى الإنسان الحدث كاملاً، ثم يعجز عن
فهمه؛ لأن الكبير يعيد تفسير المشهد بما يخدم وهمه.
وأصحاب الأخدود كانوا شهوداً بالحواس، عمياناً بالقلوب؛
حضروا الواقعة وغابت عنهم حقيقتها.

وهكذا تضعنا الآيات أمام شكلين من الشهادة: شهادة
الجنة على أجساد المؤمنين وهي تحترق، وشهادة الله على
الجميع بما فيهم الجنة وما تضره صدورهم. الأولى شهادة
متكبر يظن أن رؤيته تمنحه السيادة، والثانية شهادة رب لا
يضيع عنده حق. ولذلك لن تكون الكلمة الأخيرة لمن
جلسوا على النار، بل لمن أحاط علمه بالنار ومن فيها ومن
حولها.

لقد حفر أصحاب الأخدود حفرتين: واحدة في الأرض
للمؤمنين، وأخرى في أرواحهم لأنفسهم. خرج المؤمنون من
الأولى إلى وعد الله، وبقي الجنة أسرى الثانية حتى لقوا
جزاءهم. وبين الحفرتين تتجلى حقيقة لا تبدل: إن أقسى ما
يفعله الظلم ليس ما يصنعه بأجساد ضحاياه، بل ما يصنعه
بضمائر الذين يمارسونه، حتى يجلسوا أمام النار ولا يشعروا
أنهم هم الذين يحترقون.

الفصل الثالث

جَرِيمَةُ الْإِيمَانِ: حِينَ يَغْضَبُ الطُّغْيَانُ
مِنَ الْقَلْبِ الْحَرِّ

قال الله تعالى:

﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

هنا تكشف السورة سبب الجريمة، فإذا السبب أشد
فضاعةً من الجريمة نفسها؛ لأن أصحاب الأخدود لم يعاقبوا
المؤمنين على عدوان، ولم يدفعوا عن أنفسهم خطراً، ولم
يقتصوا منهم لدمٍ سفكوه أو حقّ سلبوه، وإنما عذبوهم

لأنهم آمنوا بالله. كانت جريمة الضحايا أن قلوبهم خرجت
من ملك الطاغية، وأنهم عرفوا في أعماقهم عزة لا يمنحها
الحاكم ولا يستطيع سلبها.

وفي هذه الآية يبلغ الاستبداد غايته؛ فهو لا يكتفي بأن
يحكم حركة الإنسان في الطريق، أو يفرض عليه قانوناً
جائراً، أو يستولي على ماله وجهده، بل يريد أن يدخل إلى
أعمق نقطة في كيانه، إلى الموضع الذي تتشكل فيه عقيدته
وكرامته ومعنى وجوده. يريد من الإنسان ألا يطيعه في
الظاهر فحسب، بل أن يمنحه قلبه، وأن يعيد ترتيب الحقيقة
في داخله وفق رغبة السلطان.

ولهذا لم يكن الصراع بين أصحاب الأخدود والمؤمنين
خلافًا على مساحة من الأرض، بل صراعًا على السيادة
العليا: من يملك القلب؟ ومن يستحق الخضوع المطلق؟ ومن

يحدد للإنسان ما يؤمن به وما ينكره؟ لقد كانت النار محاولةً
يائسةً من الطاغية لإثبات أنه يستطيع إجبار الضمير، لكن
ثبات المؤمنين كشف حدود سلطانه؛ استطاع أن يملك
الحفرة والوقود والحرس، ولم يستطع أن يملك كلمةً واحدةً
في قلوبهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾

النقمة هي الكراهية والإنكار والمؤاخذة، وهي في أصل
استعمالها قد تتعلق بأمرٍ يراه الناقم عيباً أو جريمة. لكن
الآية تستخدمها في صياغة تهكمية كاشفة: ما الشيء الذي
أنكروه على هؤلاء المؤمنين حتى أعدوا لهم هذه النار؟ ما
الذنب الذي استحق عندهم كل ذلك الحقْد؟

ثم يأتي الجواب الذي يفضح اختلال موازينهم:

﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾

كأن السورة تقول: فتشوا في صحيفة الضحايا كلها، فلن تجدوا جريمةً إلا أنهم آمنوا. وما كان ينبغي أن يكون أشرف ما في الإنسان صار عند الطغيان تهمةً تستوجب الإحراق؛ وهنا لا يعود الخلل متعلقاً بفعل جزئي، بل يتقلب الميزان كله: يصبح النور جريمة، والحرية تمرداً، والصدق خطراً، ويصبح القتل عند الجلاد حمايةً للنظام.

فالطغيان لا يبدأ يوم يشعل النار، بل يبدأ يوم ينجح في تبديل أسماء الأشياء؛ حين يسمى الاستعباد طاعة، والخوف استقراراً، والصمت حكمة، والإيمان الذي يحرر الإنسان فتنةً تهدد المجتمع. وإذا استقرت هذه اللغة المقلوبة في الوعي، أصبحت الجريمة قابلةً للتنفيذ؛ لأن الناس لا يقاومون الشر الذي أعيد تقديمه لهم في ثوب الفضيلة.

ولذلك كان من وظائف الوحي أن يعيد إلى الأشياء
أسماءها. فالذين في الأخدود ليسوا متمردين خارجين عن
إنسانيتهم، بل مؤمنون؛ والذين جلسوا على النار ليسوا حراساً
للنظام، بل أصحاب الأخدود؛ وما وقع ليس تديراً لحفظ
السلطان، بل فتنةً وتعذيب وجريمة. وحين تستعيد اللغة
عدالتها، تبدأ البصيرة في رؤية العالم كما هو، لا كما تصنعه
الدعاية.

إن قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ يَحْمِلُنَا كَذَلِكَ سُؤلاً
أخلاقياً دائماً: لماذا نكره من نكره؟ هل لأننا رأينا منه ظلماً
حقيقياً، أم لأن صفاءه فضح اضطرابنا؟ هل نخاصم
الإنسان لعدوانه، أم لأن استقلاله يؤلم رغبتنا في السيطرة
عليه؟ فكثير من الخصومات التي تلبس ثوب المبادئ تخفي
في باطنها غضباً من إنسان لم يقبل أن يكون تابعاً.

وقد يكره الباطل الحق لا لأنه يجهل أنه حق، بل لأنه يعرف ما يترتب على الاعتراف به. فالإيمان بالله لا يضيف إلى حياة الإنسان شعيرةً معزولة، وإنما يعيد بناء علاقته بالقوة والمال والخوف والموت؛ والمؤمن الحق لا يرى أحداً مالكاً لمصيره مع الله. ولهذا يبدو حضوره خطراً على كل سلطةٍ تريد طاعةً بلا حدود، حتى لو كان أعزل اليد؛ لأن القلب الذي لا يخاف إلا الله يضع حداً داخلياً لما يستطيع الطغيان انتزاعه منه.

﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾

الإيمان الذي عذبوا من أجله لم يكن فكرةً ذهنيةً باردة، وإنما كان تحولاً كاملاً في جهة القلب. إنك حين تؤمن بالله حقاً لا تضيف اسماً جديداً إلى قائمة معتقداتك، بل يتغير مركز الوجود في وعيك؛ فلا يعود البشر آلهةً صغيرة

تحدد لك قيمتك، ولا يعود رضاهم هو الميزان الأخير، ولا يصبح خوفك منهم أقوى من خوفك على مصير روحك.

الإيمان تحرير؛ لأنه ينقل الإنسان من العبوديات المتناثرة إلى عبودية واحدة لله. ومن لم يعبد الله لا يعيش بالضرورة بلا عبودية، بل قد نثقاسمه آلهة كثيرة: خوفه من الناس، وشهوته للمكانة، وحرصه على صورته، وافتتانه بالقوة، واستسلامه للجماعة. أما المؤمن فيجمع شتاته عند باب واحد، فيصير أكثر قدرة على قول «لا» لكل من يطالبه بما لا يحق له.

ولهذا غضب أصحاب الأخدود. إنهم لم يغضبوا من صلاة محصورة في زاوية لا تمس سلطانهم، بل من إيمان أعاد للمؤمنين ملكية ضمائرهم. فالطغيان قد يسمح للناس بطقوسهم ما دامت تمنحهم سكينَةً خاضعة، لكنه يضيق

بالإيمان حين يتحول إلى معيارٍ فوق إرادته، وحين يقول
المؤمن للحاكم: لك حق محدود، أما قلبي وولائي المطلق
وحكمي النهائي فله.

إن في الآية إشارةً إلى أن أعظم ما يملكه الإنسان ليس
جسده، بل الجهة التي يهبها قلبه. أصحاب الأُخُدود
استطاعوا الإمساك بالأبدان، لكنهم ظلوا واقفين خارج
القلوب. ضربوا، وهددوا، وأشعلوا، ثم اكتشفوا أن
أدواتهم كلها عاجزة أمام قرارٍ صامت اتخذهُ المؤمن في
داخله: لن أنكر الله.

كانت تلك الكلمة غير المنطوقة أقوى من النار؛ لأن النار
تستطيع تفكيك الجسد، لكنها لا تملك من ذاتها حجةً تقنع
العقل أو سلطاناً يبدل اليقين. ولهذا يحتاج الطغيان دائماً
إلى الخوف: ليس لديه ما يخاطب به الروح، فيخاطب

الأعصاب؛ ولا يملك برهاناً، فيرفع السيف؛ ولا يستطيع إقناعك أنه حق، فيحاول إقناعك بأن مقاومته مكلفة.

وما أضعف قوةً تحتاج إلى إحراق الإنسان كي تنتزع منه اعترافاً! إنها تبدو في ظاهرها بطشاً، لكنها في باطنها إعلان عجز؛ فلو استطاع الباطل أن يهزم الإيمان بالحجة لما احتاج إلى الأخدود. النار آخر منطق القوة حين تفلس منطقاً، والسوط اعترافٌ صامت بأن صاحبه لم يجد إلى العقل سبيلاً.

﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ﴾

لم تذكر الآية اسم الله مجرداً، بل وصفته بالعزة: ﴿الْعَزِيزِ﴾. وهذه الصفة في هذا الموضع ليست زيادةً بيانية، وإنما هي قلب المعركة كليهما. فالمؤمنون يقفون في ظاهر المشهد ضعفاء أمام سلطةٍ قادرة على تعذيبهم، لكنهم

يؤمنون بالعزیز؛ ومن آمن بالعزیز لم يعد یقیس العزة بما یراه
على وجوه المتغلبین.

العزیز هو الذي لا یُغلب، الممتنع في کمال قوته وسلطانه،
الذي لا یمخرج شيء عن ملكه، ولا يستطيع أحد أن یرده
عن إرادته. فإذا استقرت هذه الحقيقة في القلب،
انكسرت الأصنام النفسية التي یصنعها مشهد القوة. قد
یرى المؤمن أمامه ناراً وحرساً وملكاً، لكنه یعلم أن كل
ذلك قائم في ملك الله، وأن القوة التي تهدده مستعارة،
وأن اليد المرفوعة علیه تحمل في عروقها حياة لا یملك
صاحبها استمرارها لحظة واحدة.

كان أصحاب الأخدود یريدون أن یثبتوا للمؤمنین أنهم
الأعز، فجاء الاسم الإلهي لیهدم دعواهم: ﴿الْعَزِيزُ﴾. لم
یقل النص إن المؤمنین آمنوا بالله الرحیم فقط، مع أن

رحمته محيطة بهم، بل ذكر العزة في مواجهة القوة المتوهمة؛ حتى لا يختلط في النفس إمهال الطاغية بعجز الله عنه، ولا يفهم وقوع البلاء على أنه خروج للكون من سلطان ربه.

إن الله عزيز حين ينجي عباده، وعزيز حين يقدر لهم الشهادة؛ عزيز حين تظهر آثار نصره عاجلاً، وعزيز حين يؤخر القصاص إلى اليوم الموعود. لا تقاس عزته بالنتيجة التي تريدها نفوسنا في الساعة التي تريدها؛ لأن العزة الإلهية مطلقة، أما رؤيتنا فمحدودة بجانب صغير من التدبير.

ومن أعمق ما تربي عليه الآية أن انتساب الإنسان إلى العزيز يمنحه عزة لا تحتاج إلى استعلاء على الخلق. فالعزة الإيمانية ليست كبراً ولا خشونة، وليست ادعاء العصمة أو احتقار المخالفين؛ إنها امتناع القلب عن الذل للباطل، مع بقاء الرحمة والعدل والتواضع. الطاغية يتكبر لأنه يشعر في

أعماقه بالهشاشة، أما المؤمن فيتعزز بالله؛ فلا يحتاج إلى
إذلال أحد كي يثبت لنفسه قيمته.

لقد كان أصحاب الأخدود فوق الحفرة، لكنهم كانوا
أذلاء لشهوة السيطرة؛ وكان المؤمنون داخلها، لكنهم
أغزاء لأنهم لم يمنحوا الطاغية ما أراد. وهنا يتبدل تعريف
المكانة: ليس العزيز من يستطيع أن يعذبك، بل من لا
يستطيع التعذيب أن ينتزع مبادئه؛ وليس الذليل من قيد
جسده، بل من صار عبداً لخوفه أو شهوته حتى فقد
إنسانيته.

﴿الْحَمِيدُ﴾

ثم يأتي الاسم الثاني: ﴿الْحَمِيدُ﴾، وهو المستحق للحمد في
ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، المحمود في السراء والضراء،

في العطاء والمنع، وفيما أدركت العقول حكمته وما غاب عنها وجه الحكمة فيه.

واجتماع العزيز الحميد من بدائع هذا السياق؛ فالعزة المجردة في تصور البشر قد توحى بالقوة الباردة، لكن عزة الله مقرونة بالحمد. إنه قادرٌ قدرةً مطلقة، وكل فعله قائم على الحكمة والعدل والرحمة؛ لا يظلم تحت سلطان القوة، ولا يبطش لهوى، ولا تنسرب إلى حكمه نزوة انتقام. أما طغاة الأخدود فامتلكوا قدرًا محدودًا من القدرة بلا استحقاق للحمد، فتحولت قوتهم إلى نار.

والإيمان بأن الله حميد أثناء المحنة مقامٌ عظيم؛ فمن السهل أن يحمد القلب حين تتوافق الأقدار مع رغباته، لكن الامتحان يبلغ عمقه حين يُطلب منه ألا يسيء الظن بربه وهو لا يفهم ما يجري. والمؤمنون الذين واجهوا

الأخدود لم يؤمنوا بإلهٍ لا يعرفونه، بل بالله العزيز الحميد؛ كانوا يعلمون أن ما يقدره الله لا يخرج عن حكمته، وأن الألم—مهما اشتد—لا يعني أن الله تخلى عنهم أو أبغضهم.

وهنا تظهر واحدةٌ من أخطر المعارك التي يخوضها المؤمن في البلاء: معركة صورة الله في قلبه. فقد ينجح الألم في أن يهمس له: لو أحبك الله لما أصابك هذا، ولو كان معك لما تركك في النار. فتأتي كلمة ﴿الْحَمِيدِ﴾ لترد القلب إلى اليقين: ليست المحبة الإلهية عقداً مع الراحة، وليست الكرامة عند الله مرادفةً للسلامة الدائمة؛ فقد يُبتلى أحب الناس إلى الله، ويُمهّل أبغضهم إليه، لأن الدنيا ليست دار الجزاء الأخير.

إن الله لا يُحمد لأننا فهمنا جميع أقداره، بل لأنه أهل الحمد قبل فهمنا وبعده. ونحن لا نزعّم أمام المآسي أننا

نحيط بالحكمة الخاصة في كل جزئية؛ فهذا ما لا علم لنا به، لكننا نؤمن بالحقيقة الكبرى: أن ربنا ليس ظالماً، وأن علمه لا ينقص، وأن رحمته لا تغيب، وأن ما استعصى علينا تفسيره لا يستعصي على حكمته.

وكم هو عميق أن يموت المؤمن وهو يحسن الظن بالله! يستطيع الجلال أن يؤلم الجسد، لكن الخطر الأعظم أن يشوه الألم علاقة القلب بربه. فإذا ظل الله في القلب العزيز الحميد، فقد عبر المؤمن المحنة دون أن تسم روحه، ووصل إلى الله وهو يعرفه بأسمائه التي عرفه بها في أيام العافية.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

بعد ذكر العزة والحمد، تقرر الآية حقيقة الملك: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وهنا تبلغ المفارقة ذروتها؛ فأصحاب الأخدود تصرفوا كأن الأرض لهم، وكأن

أجساد المؤمنين ملكٌ يتصرفون فيه، وكأنهم يستطيعون أن يحددوا من يحق له أن يعيش ومن يجب أن يموت. لكن السورة ترد الأرض كلها إلى مالكيها الحقيقي.

لله ملك السماوات والأرض؛ فالأخدود محفورٌ في أرضه، والوقود مأخوذ من خلقه، والنار لا تشتعل إلا بالسنن التي أودعها، والجنة والضحايا جميعاً قائمون بإمداده. لا يعني هذا أن الله يحب الجريمة أو يرضاهما؛ تعالى الله عن الظلم، وإنما يعني أنها لم تقع خارج علمه وملكه، وأن إمهاله للجنة ليس عجزاً، وأن قدرته على أخذهم لم تتخلف لحظة.

كل ملك بشري جزئي، مؤقت، محاط؛ يملك الإنسان شيئاً بقدر ما أذن الله له، ثم يتركه أو يتركه الشيء. أما ملك الله فشامل لا يسبقه عدم ولا يلحقه زوال. والذين أحرقوا المؤمنين لم يملكوا حتى النار التي أشعلوها؛ كانوا

يستخدمون أجزاءً من ملك الله في معصيته، ثم سيقفون بين يديه وقد انتهت الاستعارة وبقي الحساب.

والإيمان بملك الله يعيد ترتيب الانتماء في القلب. إذا كانت السماوات والأرض له، فأين يهرب المؤمن منه؟ وأين يخرج الموت عن ملكه؟ إن انتقل من الدنيا فلن ينتقل إلى أرضٍ لا يملكها الله، بل يخرج من طورٍ من أطوار ملكه إلى طور آخر. ولذلك لا يستطيع الطاغية أن ينفي المؤمن من وطن الله؛ قد يخرج من مدينة، أو يسلبه بيتاً، أو يوارى جسده في حفرة، لكنه لا يخرج من سلطان ربه ورحمته.

وهذه الحقيقة تحرر القلب من المبالغة في تقدير ملاك اللحظة؛ فكل من يقول «أنا أملك» ينبغي أن يسمع في أعماقه: أنت مستخلف لا مالك على الحقيقة. ملكك محدود

بزمان، وقدرتك محكمة بأجل، وسلطانك يجري فوق
أرضٍ ليست لك. فإن استعملت ما استخلفك الله فيه
بالعدل نجوت، وإن حولت العارية إلى أداة للطغيان لقيت
المالك الحق بما صنعت في ملكه وعباده.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

ثم تختم الآية بحقيقة الشهادة: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ﴾. لم يقل: والله شهيد على الأخدود فحسب؛ بل وسّع
الدائرة حتى شملت كل شيء. إنه شهيد على النار حين
أوقدت، وعلى اليد التي جمعت وقودها، وعلى الأمر الذي
صدر، وعلى من أطاع خوفاً، وعلى من شارك رغبةً، وعلى
من تألم، وعلى من ثبت، وعلى ما دار في القلوب ولم تنطق
به الألسنة.

الله شهيد على كل شيء؛ ولذلك لا يضيع شيء. في المحاكم البشرية قد تُفقد الوثائق، ويُستَرى الشهود، وتُمحى الآثار، ويموت أصحاب الحقوق قبل أن يسمعهم أحد؛ أما في محكمة الله فالجريمة محفوظة في علم لا يعتريه نسيان. وليس حفظ الله للواقعة حفظاً بارداً، بل حفظ ربّ عادلٍ سيجعل للشهادة أثرها حين يأتي اليوم الموعود.

وفي الآية سَكِينَةً خاصة للمؤمنين الذين ماتوا دون أن يروا في الدنيا قصاصاً من قاتليهم. ربما أغلقت أعينهم على صورة الجناة وهم جالسون، لكن الله لم يغلق ملفهم؛ وربما لم يجدوا من يحمل أسماءهم، لكن الله سماهم المؤمنين؛ وربما ظن أصحاب القوة أن الله محآ آثارهم، فإذا الوحي يخلد موقفهم، ويجعل ملايين القلوب بعدهم تقرأ قصتهم بخشوع.

وفي الوقت نفسه، تهز هذه الشهادة كل من يمارس ظلماً خفياً يظن أنه لن يُعرف. فالله لا يحتاج إلى كاميرا، ولا إلى وثيقة، ولا إلى اعتراف الجاني؛ هو شهيد قبل أن يبدأ الفعل، وأثناء وقوعه، وبعد أن يحاول صاحبه دفنه. يرى الظلم الذي تصنعه اليد، ويرى كذلك الكلمة التي تكسر قلباً، والخيانة التي أحكم سترها، والنية التي تنتظر قدرتها كي تتحول إلى جريمة.

لكن الشهادة الإلهية لا ينبغي أن تبني في النفس خوفاً مجرداً؛ إنها كذلك شهادة على الخير الذي لم يره أحد. الله شهيد على مقاومة المؤمنين، وعلى رجفة الخوف التي غلبوها، وعلى دعائهم الصامت، وعلى صدقهم الذي لم يتحول إلى خبر. ما دام الله على كل شيء شهيداً، فلا عمل صالح مجهول، ولا دمة خفية مهدرة، ولا صبر لم يصفق له الناس ناقص القيمة.

وهكذا تجمع الآياتان أركان اليقين الذي حمل أصحاب
الأخدود: إيماناً بالله يحررهم، وبالعزيز يمنحهم الكرامة،
وبالحמיד يحفظ حسن ظنهم وسط الألم، وبالمالك يبدد وهم
سلطان الطغاة، وبالشهيد يطمئنهم إلى أن قصتهم لن تضيع.

لقد أراد الجلاّدون أن يجعلوا الإيمان تهمةً، فجعلته
السورة وساماً؛ وأرادوا أن يثبتوا أنهم الأعزّة، فكشف
الوحي أنهم يبطشون داخل ملك العزيز؛ وأرادوا أن يجعلوا
المؤمنين يموتون بلا شاهد، فشهد لهم الله في قرآنٍ يُتلى.

كان سؤال أصحاب الأخدود للمؤمنين: أتكفرون

لتعيشوا؟

وكان جواب قلوبهم: وأي حياة تبقى لنا إذا كفرنا
بالحقيقة التي منحت حياتنا معناها؟

هناك، أمام النار، لم يكن الإيمان رأياً بين آراء، بل
كان الاسم الحقيقي للإنسان حين رفض أن يعيش بجسدٍ
نجا، وقلبٍ مات.

الفصل الرابع

بَابُ فَوْقَ حَافَةِ الْجَحِيمِ: التَّوْبَةُ الَّتِي لَمْ
يُغْلِقْهَا اللَّهُ فِي وَجْهِ الْقَتْلَةِ

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ
يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ
﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْكَبِيرُ﴾

من بين ألسنة النار، ومن جوار الأخدود الذي امتلأ
بأجساد المؤمنين، تفتح السورة باباً لم يكن العقل البشري

يتوقع أن يجده مفتوحاً: باب التوبة. فبعد أن صورت الجريمة في أقصى وجوهها، وبعد أن كشفت الجناة وهم يجلسون على حافتها ويراقبون ما يفعلون، لم تقل إنهم قد خرجوا خروجاً مطلقاً من إمكان الرحمة، بل قالت: ﴿ثُمَّ لَمْ يُتُوبُوا﴾.

إن هذه الكلمات القليلة تكاد توقف القلب أمام سعة لا يملك إلا أن يخشع لها. هؤلاء الذين حفروا، وجمعوا الوقود، وأشعلوا النار، وعذبوا المؤمنين والمؤمنات، وجلسوا يتفرجون على الأجساد وهي تحترق؛ هؤلاء أنفسهم أبقى الله أمامهم—ما داموا أحياء—طريقاً للرجوع. لم يجعل جريمتهم صغيرة، ولم يسقط حق ضحاياهم، ولم يسم الوحشية باسمٍ مخفف، لكنه أعلن أن رحمته أعظم من أن يعجزها ذنب إذا جاء صاحبه منكسراً، نادماً، مصلحاً ما استطاع.

وهنا تبلغ السورة توازناً لا يستطيع الفكر البشري المجرد بلوغه بسهولة: عدلٌ لا ينسى دم الضحية، ورحمةٌ لا تياس من هداية الجاني؛ وعيدٌ شديد لمن يصر، وبابٌ مفتوح لمن يعود. ليست الرحمة إلغاءً للعدالة، وليست العدالة تشفيًا، بل كلاهما صادر عن ربٍّ عزيز حميد، لا يظلم المقتول كي يغفر للقاتل، ولا يحرم المجرم من طريق النجاة إذا صدق في توبته وأدى ما استطاع من حقوق العباد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

الفتنة هنا هي التعذيب والابتلاء والاضطهاد الذي أراد به أصحابه صرف المؤمنين عن دينهم. إنها ليست مجرد إيذاء للجسد؛ بل محاولة لاختراق الروح، وإجبار الإنسان على أن يخون أعظم ما يؤمن به. فقد كان يمكن للطغاة أن يقتلوا المؤمنين مباشرة، لكنهم أرادوا قبل الموت شيئاً آخر: أرادوا

منهم التراجع، وأرادوا أن يجعلوا النار حجة الخوف التي تهزم حجة اليقين.

فالفتنة في جوهرها وضع القيمة تحت الضغط، حتى يختار الإنسان بين سلامة جسده وسلامة ضميره. وهي تكشف ما خفي في القلب؛ لا لأن الله يجهل عبده قبل الامتحان، تعالى عن ذلك، بل ليظهر المكنون في عالم الفعل، وليعلم الإنسان نفسه، وتقوم الحجة، وتكشف حقيقة الدعوى.

وكثيرون يستطيعون حمل المبادئ ما دامت خفيفةً لا تنازعهم راحةً ولا مصلحة، لكن المبادئ لا تكشف وزنها الحقيقي إلا حين تصبح مكلفة. قبل الأخذود كان الجميع قادرين على قول «آمنّا»، فلما اشتعلت النار صار للإيمان معنى يتجاوز اللفظ؛ صار اختياراً وجودياً يقرر به المرء أي

حقيقة تستحق أن يعيش لها، وأي شيء يستحيل عليه أن يبيعه ولو اشترى به عمراً كاملاً.

ولم يقل الله: فتنوا المؤمنين فقط، بل قال: ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، فذكر النساء كما ذكر الرجال، وأظهر أن المهمن وثباتهن وشهادتهن ليست تفصيلاً تابعاً في القصة. كنَّ حاضراتٍ في المحنة، داخلاتٍ في شرف الموقف، محفوظاتٍ في البيان الإلهي.

إن الطغيان لا يحترم ضعفاً ولا سنّاً ولا جنساً حين تتحول السيطرة في داخله إلى عقيدة؛ فهو يرى في كل قلبٍ حر خطراً، سواء حمله رجل أو امرأة. ولذلك جاءت الآية بتلك المساواة المهيبة في مقام الابتلاء والجزاء: مؤمنون ومؤمنات فُتنوا، وكل نفسٍ منهم معلومةٌ عند الله، وكل قلبٍ منهم له شهادته ومقامه.

وفي تخصيص الوصف بالإيمان تذكير بأن ما تعرضوا له لم يكن بلاءً أعمى، بل اضطهاداً بسبب عقيدتهم. وهذا يحمل الجريمة فوق ظلم التعذيب ظلماً آخر: مصادرة حق الإنسان في أن يهتدي إلى ربه، ومحاولة قطع الطريق بين العبد وخالقه. إن الجلال هنا لا يقول فقط: أنا أملك جسدك، بل يقول في باطن فعله: أنا أقرر لك من تعبد. وبذلك ينزع مقاماً ليس له، ويتجاوز حدود السلطة البشرية إلى ادعاء سيادة على الضمائر.

لكن الفتنة لا تقتصر على صورتها الدموية القصوى؛ فلها درجات وأدوات تتبدل بحسب الأزمنة. قد تُفتن القلوب بالخوف، وقد تُفتن بالإغراء، وقد يُعرض على الإنسان أن يبيع بعض صمته مقابل مكانة، أو بعض مبادئه مقابل أمان، أو بعض صدقه مقابل قبول الناس. والنار ليست دائماً مشتعلةً في حفرة؛ فقد تتخفى في عقدٍ يطلب

من صاحبه أن يوقع تنازله عن نفسه، أو في منصب لا يُعطى إلا لمن يخفض رأسه للباطل، أو في عزلة اجتماعية يُهدد بها من يأبى أن يكذب.

وليس كل ضغطٍ فتنةً في الدين، ولا كل حرمانٍ أخذوداً؛ لكن الآية تربي في النفس حساسيةً تجاه الوسائل التي يكره بها الناس على خيانة ضمائرهم. فكرامة الإنسان لا تنتهك فقط حين يُقتل، بل حين يُراد له أن يبقى حياً بعد أن يُنتزع منه حقه في أن يكون صادقاً مع ما يعتقد.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾

هذه من أوسع عبارات الرجاء في القرآن، لا لأنها وردت في سياق أناسٍ صالحين أذنبوا ذنباً عابراً، بل لأنها جاءت بعد جريمة الأخدود. كأن الرحمة الإلهية تقف أمام القاتل ويداه لم تبرأ من أثر الجريمة، وتقول له: ما زال

بإمكانك أن تعود، لكن عليك أن تعرف إلى أين تعود،
وأن تحمل توبتك حقيقةً لا حيلة.

والتوبة ليست كلمةً يغطي بها الماضي، ولا اعتذاراً بارداً
يطالب الضحية بأن تنسى، وليست سبيلاً ليفلت الظالم من
تبعات فعله بينما يحتفظ بثماره. إنها انقلابٌ في جهة
الإنسان: ندمٌ صادق، وإقلاعٌ عن الجريمة، وعزمٌ ألا يعود،
وردٌ للحقوق بقدر الاستطاعة، وتحملٌ لتبعات ما أفسده.
وفي الجرائم المتعلقة بالعباد لا يكون الصدق مع الله ذريعةً
لإهدار حقوق خلقه.

إن من سهولة اللسان أن يقول الجاني: تبت، لكن آثار
فعله ما تزال تحاصر ضحاياه وهو لا يبذل جهداً في جبرها؛
والتوبة التي لا تغير موقف صاحبها من المظلوم ولا تدفعه
إلى رد ما يستطيع رده تحتاج إلى مراجعة صدقها. فالله

الذي فتح الباب هو نفسه الذي حرّم الظلم، ولا تكون العودة إليه باستمرار الاعتداء على عباده.

ومع ذلك، تظل الآية مدهشةً في رحمتها؛ فحتى هؤلاء لم يقل الله إن التوبة لا تنفعهم. وليس في هذا انتقاصٌ من منزلة المؤمنين الذين أُحرقوا، بل تعظيمٌ للرب الذي آمنوا به؛ فهو الغني عن التشفي، الرحيم بعباده، الذي لا تزيده عقوبة المجرم ملكاً، ولا تنقص خزائنه المغفرة، لكنه يضع كل شيء في موضعه بعدلٍ وحكمة.

وتدل ﴿ثُمَّ﴾ على امتداد المسافة؛ فقد وقعت الفتنة، ومضى بعد وقوعها وقت يمكنهم فيه أن يفيقوا، وأن ينظروا إلى ما صنعت أيديهم، وأن يسمعوا في أعماقهم صوت الفطرة، ثم لم يتوبوا. إن الوعيد لا يتعلق بمجرد ماضٍ أسود،

بل بإصرارٍ حمل الماضي إلى الحاضر ومنع القلب من الرجوع.

فالإنسان لا يهلك دائماً بالذنب الأول، بل قد يهلك بالدفاع عنه. ربما وقعت المعصية في لحظة ضعف، لكن الكبر يحولها إلى موقف، والتبرير يحول الموقف إلى هوية، والإصرار يغلق النوافذ التي يدخل منها الندم. وما يزال الذنب—على فظاعته—أقرب إلى العلاج ما دام صاحبه يسميه ذنباً؛ فإذا سماه فضيلة، وبني حوله خطاباً يبرره، صار الرجوع أشق لأن عليه أن يهدم الصورة التي صنعها لنفسه.

وأصحاب الأخدود لم يكونوا محتاجين فقط إلى إطفاء النار، بل إلى إطفاء الكبر الذي أشعلها. كانوا محتاجين إلى الاعتراف بأن من أحرقوهم كانوا مؤمنين أبرياء، وأن القوة

التي امتلكوها لم تجعل فعلهم حقًا، وأن جلوسهم على الحافة لم يرفعهم بل أسقطهم. وما أثقل هذه الاعترافات على نفسٍ اعتادت أن تقدم ذاتها مصدرًا للحقيقة!

إن التوبة الحقيقية ليست مجرد مغادرة فعل، بل مغادرة روايةٍ كاملة كان الإنسان يرويها عن نفسه؛ أن يعترف بأنه لم يكن بطلاً كما تخيل، وأن الضحية لم تكن مجرمًا كما زعم، وأن الجماعة التي صفقت له لم تحول باطله إلى حق. لذلك تحتاج التوبة إلى شجاعةٍ ربما تفوق الشجاعة التي احتاج إليها اعتراف الذنب؛ لأن اعترافه وافق الهوى، أما الاعتراف به فيهدم صنم الذات.

لكن الباب مفتوح. وهذه هي الكلمة التي لا ينبغي أن تضع في رهبة المشهد: مفتوح، حتى للذين أشعلوا الأخدود. فإذا كان هؤلاء لم يُحرموا من إمكان التوبة،

فبأي حق يقنط المذنب الذي ما تزال في قلبه بقية ندم؟
ومن الذي يستطيع أن يقول لعبدٍ عاد منكسراً إن ذنبه
أكبر من رحمة الله؟ إن اليأس بعد معرفة سعة الرحمة ليس
تواضعاً، بل سوء ظن بالله؛ كما أن الأمن من العقوبة مع
الإصرار ليس رجاءً، بل غرور.

وبين اليأس والغرور يقف المؤمن: يرى ذنبه كبيراً كي
يتوب، ويرى رحمة ربه أكبر كي لا يقنط.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾

إذا أصروا ولم يتوبوا، جاء الجزاء: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ
وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾. وقد ذكر المفسرون في الجمع بين
العذابين معاني، منها أن لهم عذاب جهنم بكفرهم، وعذاب
الحريق بما أحرقوا به المؤمنين؛ فيكون الجزاء مواجهاً للجريمة،
وتعود النار التي اتخذوها أداةً لإذلال عباد الله عذاباً عليهم.

في الدنيا كانت النار ملكاً متوهماً في أيديهم: يزيدون وقودها، ويقربون إليها من يشاؤون، ويجلسون بعيداً عن لهبها. أما في الآخرة فلا حافة تمنحهم الأمان، ولا مقعد يتيح لهم الفرجة، ولا ضحية يدفعونها أمامهم. تتساقط الفوارق المصطنعة، ويعلمون أن النار التي توهموا السيطرة عليها كانت منذ البداية جنداً من جنود الله، وأنهم لم يكونوا سادتها، بل كانوا يهيئون بأفعالهم ما يستحقون من الجزاء.

ولا ينبغي أن يُقرأ هذا الوعيد بشهوة التشفي البشري؛ فالمؤمن لا يتلذذ بمصائر الناس، لكنه يوقن بالعدل ويستعيد بالله من أسبابه. الفرق كبير بين أن يفرح المرء بالألم لذاته، وبين أن يطمئن إلى أن الحقوق لن تضيع. القرآن لا يربي فينا قلب الجلاذ، حتى ونحن نقرأ مصير الجلاذ؛ بل يربينا على الخوف من الظلم، وعلى رؤية العاقبة، وعلى إدراك أن

الرحمة بالمجتمع تقتضي ألا يستوي من أحرق الأبرياء بمن
احترق ثابتاً على إيمانه.

إن العدالة ضرورة لحفظ المعنى الأخلاقي للوجود. لو
استوى القاتل والمقتول، والجلاد والضحية، ومن باع ضميره
ومن صانه، لتحولت القيم إلى ألفاظ بلا أثر. لكن اليوم
الموعود يعيد لكل موقف وزنه، فلا تكون نجاة الظالم المؤقتة
إلغاءً للحقيقة، ولا يكون موت المظلوم انطفاءً لقضيته.

وتكرار ﴿لَهُمْ﴾ في قوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ يثبت الجزاء ويقرره؛ فكأن كل نوع من
العذاب قائم لهم على حدة. وهي مواجهة تهز القلب: لقد
جعلوا للمؤمنين ناراً، فجعلوا لأنفسهم — بإصرارهم — عذاباً لا
تقاس به نار الدنيا.

والسورة لا تقول هذا كي تدفع المظلوم إلى انتظار
 الانتقام وحده، بل كي تحرره من أن يحمل في قلبه عبء
 إدارة الكون. ليس عليه أن يجعل روحه محكمةً مشتعلةً
 طوال عمره، ولا أن يستهلك ما بقي منه في تخيل
 القصاص؛ فهناك رب شهيد، ويوم موعود، وعدالة لا
 تسقط منها التفاصيل. يفعل الإنسان ما يقدر عليه من طلب
 الحق ودفع الظلم، ثم يسلم ما عجز عنه إلى الله، فلا يتحول
 ظلم الآخرين له إلى سجنٍ داخلي يعيش فيه بعد أن خرج من
 سجنهم الخارجي.

الفصل الخامس

الْفَوْزُ الَّذِي وُلِدَ مِنَ النَّارِ

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾

في الآية السابقة نار، وفي هذه الآية أنهار؛ هناك حريق،
وهنا جنات؛ هناك أصحاب الأخدود، وهنا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات. إنها المقابلة التي تعيد ترتيب الصورة بعد
أن أربكها ظاهر الدنيا.

فحين رأينا المؤمنين داخل النار وأصحاب الأخدود
حولها، كادت العين الأرضية أن تسمي الأولين خاسرين

والآخرين غالبين. لكن القرآن ينقل المشهد إلى نهايته: الذين
احترقوا في الأرض لهم جنات تجري من تحتها الأنهار،
والذين جلسوا آمنين على النار لهم عذاب الحريق إن ماتوا
بلا توبة.

هذه هي المسافة بين الخبر القرآني والخبر الذي تكتبه
القوة؛ القوة تلتقط صورة اللحظة، أما القرآن فيكشف
المصير. في صورة اللحظة أجساد تسقط، وفي صورة المصير
أرواح تفوز؛ في الأولى عرشٌ ونارٌ وحرس، وفي الثانية لا
عرش إلا عرش الله، ولا أمن إلا لمن لقيه مؤمناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

لم يقل النص إن لهم الجنة لمجرد أنهم تألموا؛ فالألم
وحده لا يقدس صاحبه، ولا كل مظلوم يكون مستقيماً

في كل شيء.. إنما جمع لهم بين الإيمان والعمل الصالح،
ليقرر أن منزلتهم قامت على حقيقةٍ قلبية ومسييرةٍ عملية.

الإيمان أصل، والعمل ثمرته؛ وما يسكن القلب حقًا لا
بد أن يظهر أثره في الوجهة والسلوك. وأصحاب الأخدود لم
يكن ثباتهم لحظةً منفصلةً عن حياتهم، بل كان—فيما يدل
عليه وصفهم—ثمرة إيمانٍ عاشوه حتى تمكن منهم. فالذي
يريد ثباتًا في الأزمات عليه أن يبني نفسه قبلها؛ لأن ساعة
الحنّة لا تمنح الإنسان قلبًا جديدًا، بل تكشف غالبًا ما ظل
يكونه في الخفاء.

إن الصالحات الصغيرة التي يستهين بها المرء قد تكون
الجزور التي تمنع شجرة القلب من الاقتلاع يوم العاصفة:
صلاةٌ يحضر فيها صدقه، وأمانةٌ يؤديها حين يستطيع الخيانة،
وشهوةٌ يتركها لأن الله يراه، وكلمةٌ حق يقولها دون جمهور،

وذنوب يندم عليه ويرجع منه. بهذه الاختيارات الخفية يتعلم القلب أن يقدم الله على هواه، فإذا جاء الامتحان الكبير لم يكن معنى التضحية غريباً عليه.

ولا يعني ذلك أن الثبات ثمرة الجهد البشري وحده؛ فالقلوب بين أصابع الرحمن، والعبد مفتقر إلى تثبيت الله في كل لحظة. لكنه يطرق باب التثبيت بالطاعة، ويعرف ربه في الرخاء، ويسأله ألا يكله إلى نفسه عند البلاء. فلا يغتر بإيمانه، ولا يزيكي نفسه، ولا يتنى الفتنة ليثبت شجاعته؛ بل يسأل الله العافية، ثم يسأله الثبات إن نزل ما لم يختره.

﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

ما أرق هذا الجزاء بعد خشونة الأخدود! كانت النار ذات الوقود من تحتهم وحولهم، فإذا الأنهار تجري من تحت جناتهم؛ وكان المكان ضيقاً حاصر أجسادهم، فإذا

الجنات فضاء رحب لا نهاية لنعيمه؛ وكان الجلال يملك عليهم لحظة ألم، فإذا الله يهبهم خلوداً لا يصل إليه الجلادون.

والجمع في ﴿جَنَّاتٍ﴾ يوحي بتعدد ألوان النعيم واتساعها، كما أن جريان الأنهار يوحي بالحياة والتجدد والطمأنينة. فالنار تلتهم وتفتي، والماء يحيي وينمي؛ كأن الجزاء جاء يمسح أثر المشهد الأول، لا بإعادة ما فقد فحسب، بل بمنح ما لا تقوى الخيلة البشرية على الإحاطة به.

إن الله لا يعوز أولياه تعويضاً محدوداً يساوي ما أخذ منهم فحسب؛ بل يعطي بفضله ما يجعل أعمار الأمم كلها— حين يرون منزلتهم— كأنها لحظة عبرت في طريق النعيم. ولا يعني هذا أن الألم لم يكن حقيقياً، بل يعني أنه لم يكن خالداً؛ والفرق بين المؤمن واليأس ليس أن أحدهما لا

يتألم، بل أن المؤمن يعرف أن الألم مهما طال لا يملك صفة البقاء.

في الدنيا كان المؤمنون في قاع الأخدود والطغاة فوقهم، وفي الآخرة تكون الجنات منازلهم والأنهار تجري من تحتهم. وهذا ليس مجرد تبديل مكاني، بل تصحيح للميزان: من ارتفع في الدنيا بظلمه ينخفض، ومن أنزل في الحفرة بسبب إيمانه يرتفع. إن الله لا ينظر إلى المواضع التي وضع الناس بعضهم فيها، بل إلى المواضع التي اختارتها قلوبهم منه.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾

هنا تنطق السورة بالحكم النهائي: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾. ولنتأمل جرأة هذا التعبير في مواجهة ظاهر المشهد: قوم أُحرقوا أحياء، ثم يسمي القرآن مصيرهم فوزاً كبيراً. إن

هذا لا يمكن فهمه إذا حُصرت الحياة بين الميلاد والموت؛
لكنه يصبح واضحاً حين تُرى الدنيا بوصفها مرحلة،
والآخرة بوصفها دار البقاء.

الفوز في ميزان البشر غالباً هو أن تنجو من الألم، وتحفظ
مالك ومكانتك، وتغلب خصمك في زمنك. أما الفوز في
ميزان القرآن فهو أن تصل إلى الله وقد حافظت على
إيمانك، وأن تعبر الاختبار دون أن تفقد حقيقتك، وأن
تدخل الجنة ولو خرجت من الدنيا بلا شيء.

وليس معنى ذلك أن كل هزيمة دنيوية نصرٌ، أو أن
المؤمن لا يخطط للنجاح في الأرض، أو أن سوء التدبير
يُغنى بلغة الشهادة؛ فالقرآن يأمر بالأخذ بالأسباب،
وإعداد القوة، وحماية النفس والمجتمع، وإقامة العدل. لكن
سورة البروج تتحدث عن اللحظة التي تستنفد فيها الأسباب،

ويصبح المطلوب من الإنسان أن يختار بين دينه وسلامة جسده؛ عندها يتغير تعريف النجاة: ليست النجاة أن يخرج من النار بأي ثمن، بل ألا تدخل النار إلى إيمانه.

وقد وصف الفوز بالكبير لأن كل فوز دونه صغير إذا انتهى إلى خسارة الآخرة. ماذا يربح الإنسان لو ربح تصفيق العالم كله وخسر نفسه؟ وماذا يخسر لو خرج من الدنيا مجهول الاسم، لكنه دخل في علم الله ورضوانه؟ إن المقاييس الأرضية تقيس ما يمكن رؤيته وعدّه، أما المقياس القرآني فيضع في الحساب الخلود والرضا والقرب من الله.

أراد أصحاب الأخدود من المؤمنين خياراً ظاهراً واضحاً: إيمانٌ ينتهي إلى النار، أو كفرٌ يعيدهم إلى الحياة. لكن المؤمنين رأوا المعادلة على حقيقتها: ثباتٌ يعبر بهم من نار

قصيرة إلى جنة خالدة، أو خيانة تنجي الجسد لحظةً وتترك الروح أمام خسارتها الكبرى.

وهنا سر انتصارهم: لم ينكروا النار، بل صغرت في أعينهم أمام ما وعدهم الله به؛ ولم يكونوا بلا حب للحياة، بل أحبوا الحياة الحقيقية أكثر؛ ولم يكونوا طلاب موت، بل رفضوا نوعاً من البقاء لا يبقى فيه منهم إلا الجسد.

ليس الفوز الكبير أن تعيش طويلاً فحسب، بل أن تعرف لمــــــا إذا عشت. وليس أن تتجنب كل ألم، بل ألا يسمح الألم للباطل بأن يعيد تشــــــدتك. يكلك.

وليس أن يراك الناس منتصراً، بل أن تلقى الله وقد نجوت من أن تكون نسخةً ممن ظهوك أو عبداً لما خوَّفوك به.

عندئذ قد تكون الحفرة بوابة، والنار معبراً، والموت
بداية؛ وقد يخرج الإنسان من الدنيا في أعين الناس مهزوماً،
بينما تُفتح له في السماء أبواب الفوز الكبير.

الفصل السادس

بَطْشُ رَبِّكَ: حِينَ تَسْقُطُ الْقُوَّةُ
المستعارة أمام القدرة المطلقة

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إِنَّهُ هُوَ يُدْئِي
وَيُعِيدُ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ ذُو الْعَرْشِ
الْمَجِيدُ ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

بعد أن عرضت السورة جريمة أصحاب الأخدود،
وفتحت باب التوبة لمن يرجع، وقررت مصير المصريين
ومآل المؤمنين، تنتقل بالقلب إلى مصدر الحكم كله؛ فلا
تبقى العين معلقةً بالنار ولا بالجناة ولا حتى بالضحايا، بل

تتجه إلى الله: إلى بطشه، وقدرته، ومغفرته، وودده، وعرشه، وإرادته النافذة.

وهذه الآيات ترسم معرفةً متوازنةً بالله لا يطغى فيها معنى على معنى؛ فهناك البطش الشديد الذي يمنع الظالم من الاطمئنان، وهناك المغفرة التي تمنع المذنب من اليأس، وهناك الود الذي يمنع المبتلى من توهم الهجر، وهناك العرش المجيد الذي يصغر كل سلطان، وهناك الإرادة النافذة التي تضع الأحداث جميعاً داخل ملك الله وتديره.

ليست أسماء الله وصفاته هنا معارف نظرية تُضاف إلى الذهن، بل هي القوى التي أعادت بناء نفوس المؤمنين أمام الأخدود. فكل صفة إلهية تهدم وهمّاً من أوهام الطغيان: البطش الشديد يهدم وهم الإفلات، والبدء والإعادة يهدمان وهم أن الموت نهاية، والمغفرة تهدم اليأس، والود

يهدم الشعور بالهجر، والعرش يهدم أسطورة العروش
الأرضية، والإرادة النافذة تهدم اعتقاد الطاغية أنه يملك
النهاية.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾

البطش هو الأخذ بقوة، وجاءت الآية مؤكدة بـ
﴿إِنَّ﴾ واللام في ﴿لَشَدِيدٌ﴾؛ لتثبت في القلب حقيقة قد
يحجبها تأخر العقوبة: إن أخذ الله إذا أخذ الظالم ليس
ضعيفاً ولا يسيراً، ولا يستطيع المعتدي أن يدفعه بما كان
يملكه في الدنيا من جندٍ أو مالٍ أو سلطان.

ومجيء الخطاب إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ يفيض
قرباً وثباتاً؛ فالذي يتولى أخذ المكذبين هو ربك، الذي
يرعاك ويربك ويحفظ دعوتك. وليس الرسول ﷺ متروكاً

لبطش خصومه، ولا المؤمنون من بعده تركوا للفوضى؛ إن لهم رباً، وإن بطشه لشديد.

ولفظ ﴿رَبِّكَ﴾ يجمع بين الهيبة والطمأنينة؛ فهو شديد البطش بأعدائه، لكنه ربٌّ لئيبه وأوليائه. وما يملأ قلب الظالم رعباً قد يملأ قلب المظلوم سكينه؛ لأن الصفة الواحدة تُستقبل بحسب موضع الإنسان منها. فالمطر الذي يحيي أرضاً قد يهدم بناءً واهياً، والعدل الذي يخشاه المجرم هو نفسه الذي ينتظره صاحب الحق.

إن بطش الله ليس انفعالاً طارئاً، ولا غضباً أعمى، ولا انتقاماً تحركه جراح الذات كما يحدث للبشر؛ فالله سبحانه غني لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، وإنما أخذه عدلٌ وحكمة، يقع في وقته وبقدره. ولذلك فإن شدته لا تناقض رحمته؛ فالرحمة التي لا تحمي المظلوم من الظالم، ولا تردع

اليَد التي تعبث بأرواح الناس، تتحول في التصور البشري إلى عاطفة عاجزة. أما رحمة الله فكاملة، ومن كمالها أن للعدل قوةً تحرسه.

وكثيراً ما يسيء الإنسان فهم الإمهال؛ يرى الظالم يمد له في الزمن، ويتسع سلطانه، وتكثر أدواته، فيظن أن الحساب قد سقط أو أن القدرة الإلهية لا تتدخل. لكن الإمهال ليس علامة رضا، كما أن سرعة العقوبة ليست القاعدة الوحيدة في التدبير. قد يمهل الله ليقيم الحجة، أو يفتح باب التوبة، أو يستدرج من أصر، أو يبتلي القلوب، أو يخرج من طيات الحدث آثاراً لا نحيط بها.

المشكلة أن الإنسان يقيس الفعل الإلهي بعجلته؛ يريد العدالة كاملة في اللحظة التي يتألم فيها، فإذا تأخرت عن توقيته ظنها غائبة. لكنه لا يرى من شبكة الأسباب إلا

خيّطاً، ولا من عمر التاريخ إلا لحظة. أما الله فيعلم البداية والامتداد والمصير، ويضع كل شيء في موضعه الذي تقتضيه حكمته.

والآية لا تُعطى للمظلوم كي يتحول إلى متحدث باسم عقوبة الله، فيحدد لكل شخص مصيره، أو يشمت في الخلق، أو يبرر انتقامه الشخصي؛ بل تُعطى له كي يطمئن إلى أن القوة ليست سائبة، وأن الجاني لن يفلت من العدل إن لم يتب، وأنه ليس مطالباً بأن يحمل في صدره نار القصاص إلى الأبد. عليه أن يدفع الظلم بما شرع الله وقدر عليه، وأن يطلب حقه بالعدل، لكنه لا يسمح لخصمه أن يحوله إلى قلبٍ لا يعيش إلا بالكراهية.

وفي المقابل، لا ينبغي للظالم أن يغتر بستر الله عليه. فما دام العقاب لم يقع، فقد يظن أن فعله هين، أو أن الضحية

نُسِيت، أو أن الزمن غسل الجريمة. غير أن الزمن لا يغسل
 ذنباً لم يغسله الندم، والنجاة من محكمة الأرض لا تعني
 البراءة في علم السماء. وقد تكون كل مهلة جديدة حجة
 إضافية: كان الباب مفتوحاً، وكان يستطيع أن يرد الحق،
 ثم أصر.

إن عبارة ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ليست مجرد تهديد،
 بل إعادة للقوة إلى مالكها. فكل بطشٍ بشري محدود:
 يحتاج إلى جسد وآلة وفرصة، ثم ينتهي بالموت أو العجز.
 أما أخذ الله فلا يخرج أحدٌ من دائرته، ولا يستطيع المجرم
 أن يحتمي بزاويةٍ خارج الملك؛ أينما هرب فهو في أرض
 الله، ومتى مات انتقل إلى حكم الله، وكلما ظن أن المسافة
 قد أبعدته وجد أن علم الله كان محيطاً به.

﴿إِنَّهُ هُوَ يَدِيُّ وَيُعِيدُ﴾

تأتي هذه الآية تعليلاً لقدرة الله على البطش والجزاء:
فالذي أنشأ الخلق أول مرة قادرٌ على إعادتهم بعد الموت.
والذي أوجد الإنسان من عدم لا يعجزه أن يجمع ما تفرق
من جسده، ويعيد إليه حياته، ويوقفه بين يديه.

كان أصحاب الأخدود يراهنون على الموت؛ ظنوا أن
إحراق الجسد يمحو القضية، وأن تحويله إلى رماد يقطع
الطريق على صاحبه، وأن الإنسان إذا غاب عن الأرض
انتهى كل شيء. لكن قوله تعالى: ﴿يُدِيُّ وَيُعِيدُ﴾ يهدم
أساس خطتهم؛ فإدام الله يعيد، فإن القتل لا يغلق
الملف، والنار لا تملك حق كتابة الخاتمة.

لقد تعامل الجناة مع الأجساد كأنها آخر ما في
الإنسان، أما المؤمنون فرأوا الموت انتقالاً من ابتداءٍ إلى

إعادة. وبين الرؤيتين تحدد معنى الشجاعة والخوف؛ فمن ظن أن الحياة فرصة واحدة مغلقة قد يقبل الذل كي يمدها ساعات، أما من آمن أن الذي بدأه سيعيده فقد انكسر في قلبه احتكار الطاغية للحياة والموت.

والإبداء والإعادة لا يقتصران في أثرهما التدبري على إثبات البعث، مع أن ذلك معناهما المركزي؛ بل يعلمان القلب أن قدرة الله لا تقف أمام النهايات التي نراها. كم من شيء نظنه قد انطفأ إلى غير رجعة لأننا لا نملك إعادته، فنقيس قدرة الله بعجزنا! نحن إذا تهدم البناء عجزنا عن جمع بعض شتاته، وإذا مات الحبيب وقفنا أمام جسده لا نملك له نفساً واحداً، فتتصور النهاية من حدود قدرتنا. لكن الذي أنشأ من العدم لا تعجزه البقايا، ولا يحتاج في الإعادة إلى ما نحتاج إليه من أدوات.

في قوله ﴿هُوَ﴾ تأكيد يرد القدرة كلها إليه: هو الذي يبدئ وهو الذي يعيد؛ لا شريك له في الخلق، ولا معقب عليه في المصير. والطاغية الذي ادعى السيطرة على حياة المؤمنين لم يبدأ خلقهم، ولذلك لن يملك نهايتهم. كل ما استطاعه أن يتسبب في انتقاهم من مرحلة إلى مرحلة، أما وجودهم في أصله ومآله فله.

وهذه الآية تسكب في مأساة الأخدود معنى القيامة؛ فلو لم تكن هناك إعادة، لبقى المشهد جرحاً لا يجد عدالته الكاملة، ولصار كثير من حقوق المظلومين مستحيل الاستدراك. لكن الإعادة تعني أن كل طرف سيحضر، وأن الضحية ليست عدماً، وأن القاتل لن يُحاكم أمام ملفٍ بارد فقط، بل أمام حقيقة ما فعل، في يوم تتسع فيه العدالة لكل أثر.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾

ثم تأتي المفاجأة الجمالية والإيمانية: بعد ﴿بَطَشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ يقول الله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾. لم يترك القلب في رهبة البطش وحدها، ولم يسمح له أن يتصور ربه قوةً تعاقب فحسب؛ بل فتح له أفق المغفرة والود.

إنه الغفور، كثير المغفرة، يستر الذنب ويتجاوز عنه لمن تاب وآمن وعمل صالحاً. والمغفرة ليست مجرد إلغاءً للعقوبة، بل تطهير للعبد من أثر معصيته، وفتحٌ لطريق جديد لا يبقى فيه أسيراً لأسوأ لحظةٍ في ماضيه. فالإسلام لا ينكر مسؤولية الإنسان، لكنه لا يحكم عليه أن يظل إلى الأبد هو خطيئته؛ يستطيع بالتوبة الصادقة أن يولد أخلاقياً من جديد.

وإنه الودود؛ والود أرق من مجرد الرحمة في الإحساس الذي يسكبه في القلب، فهو محبةً وقرب وإكرام. والله ودود لأوليائه، يحبهم ويحبونه، ويعاملهم من آثار وده بما لا تحيط به العبارة.

ولعل اسم ﴿الْوُدُودُ﴾ هو أكثر الأسماء إضاءةً في سورة النار؛ لأن السؤال الذي قد ينهض من قلب المشاهد هو: أين كان لطف الله من المؤمنين وهم يُحرقون؟ فتجيب السورة لا بأن الله كان عالماً فقط، ولا بأنه سينتقم فقط، بل بأنه الودود. وهذه الكلمة تنقل المحنة من ظاهر الحدث إلى باطن العلاقة بين الله وعبده.

إن وقوع الألم لا يعني غياب الود، كما أن العافية الدنيوية ليست وحدها علامة القرب. فقد يحفظ الله عبداً من البلاء، وقد يحفظه في البلاء؛ قد ينجي جسده، وقد

ينجي إيمانه حين لا يكتب لجسده النجاة. ونحن بحكم تعلقنا
 بالعاجل نطن أن الصورة الوحيدة للرعاية هي أن تُرفع
 النار، لكن سورة البروج تعرفنا إلى صورةٍ أخرى: أن يملأ
 الله القلب يقيناً يجعله أكبر من النار، ثم يستقبل صاحبه في
 فوزه الكبير.

ليس معنى ذلك أن المؤمن لا يسأل النجاة؛ فالأنبياء
 والصالحون سألوا العافية والنصر، ودفَعوا الأذى بما
 استطاعوا. لكن إذا وقع البلاء على خلاف ما تمنينا، فلا
 يجوز أن نعيد تعريف الله من داخل جرحنا، فنظن أن
 رحمته انتهت لأننا لم نر صورتها التي أردناها. قد تكون
 الرحمة حاضرةً على نحوٍ لا تلتقطه العين في اللحظة، وقد
 يكون اللطف مخبوءاً وراء بابٍ لم يفتح لنا بعد.

والود الإلهي ليس شعوراً مجرداً كالود البشري المحدود؛
إنه ودٌ فعال تظهر آثاره في الهداية والتثبيت والمغفرة والجزاء
والقرب. ومن آثار وده بأصحاب الأخدود أنه لم يترك
قصتهم تذوب في الرماد، بل حفظ موقفهم في كتابه، وسمى
إيمانهم، ووعدهم بالجنات، وجعل موتهم خطاب حياةٍ
لكل مؤمن يأتي بعدهم.

ويجتمع الغفور الودود ليعطي التوبة معناها الأعمق؛ فالله
لا يغفر للتائب مغفرة سيدٍ يطلق سراح عبدٍ يكرهه ثم يظل
يذكره بجرمه، بل يفتح له بعد التطهر طريق الود. ما أعجب
هذا الدين الذي يقول للقاتل إن عدل الله ينتظره إن أصر،
ثم يقول له إن مغفرة الله ووده يمكن أن يستقبله إن عاد
صادقاً! ليس المطلوب أن يهرب من العقوبة بكلمة، بل أن
يرجع من أعماقه إلى ربٍ لا يضيق بعودته.

وبين البطش والمغفرة يقوم التوازن الذي يصلح
 الإنسان: لو عرف المغفرة وحدها ربما اغتر، ولو عرف
 البطش وحده ربما قنط، أما إذا عرف الشديد الغفور،
 خاف دون يأس، ورجا دون أمنٍ مخادع. وإذا عرف
 الودود، لم تعد طاعته مجرد هروب من النار، بل سيراً إلى
 من يحبه ويشتاق إلى رضاه.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾

العرش أعظم المخلوقات وأعلاها، والله سبحانه رب
 العرش ومالكه، مستوٍ عليه استواءٌ يليق بجلاله، من غير
 تشبيهٍ ولا تكيفٍ ولا تمثيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.
 ووصفه بالمجيد يدل على العظمة والسعة والشرف والرفعة.

ومجيء العرش في سورة تتحدث عن طغاة الأرض ليس
 عارضاً، فأصحاب الأخدود كانوا يتحركون في ظل سلطةٍ

ظنت أن لها الأمر، فجاء ذكر العرش ليضع كل عرشٍ
أرضي في جمه الحقيقي. هناك فرق بين عرشٍ تجمله
الأوهام ويجرسه الجنود ويهدده الموت، وبين عرش رب
العالمين الذي لا يلحق ملكه زوال.

كل عرش في الأرض مؤقت، مهما امتد به الزمن؛
يجلس عليه صاحبه أعواماً، ثم يقوم منه أو يُحمل عنه،
ويبقى المكان لغيره. وقد يتحول العرش الذي ظنه صاحبه
رمز خلوده إلى شاهدٍ على فناءه. أما الله فهو الأول بلا
ابتداء، والآخر بلا انتهاء، وملكه لا يورث ولا ينازع ولا
يعتريه ضعف.

إن ذكر العرش يحرر المؤمن من سطوة المشهد السياسي
والاجتماعي العابر. لا يعني ذلك أن يستخف بالقوى
والأسباب أو يهمل فقه الواقع؛ بل يعني ألا تتحول هذه

القوى في نفسه إلى قدرٍ مطلق. يعرف وزنها، ويأخذ أهبتها في التعامل معها، لكنه يدرك أنها محدودة تحت سلطان الله.

فالطاغية يحتاج إلى تضخيم صورته في وعي الناس؛ يصنع حوله هالةً توهمهم أن وجوده ضرورة، وأن حكمه أبدي، وأن الاعتراض عليه اعتراض على حركة التاريخ نفسها. أما الإيمان بـ ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ فيكسر هذه الهالة؛ إذ لا مجد مطلق إلا لله، ولا بقاء لملكٍ سواه، ولا يستحق أحد من البشر أن يُسلمَ له القلب كما يُسلمَ لربه.

ولأن الله ذو العرش المجيد، فإن المؤمن لا يحتاج إلى أن يستمد كرامته من القرب من عروش الأرض. قد يكون مجهولاً في سجلاتهم، بعيداً عن مجالسهم، لكنه معروف عند رب العرش. وقد يكون صاحب السلطان

محاطاً بالمديح، لكنه ساقط في ميزان السماء. ليس القرب الحقيقي أن تكون قريباً من كرسي ينتهي، بل أن يكون قلبك قريباً من الله.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

تختتم هذه المجموعة من الآيات بإعلان الإرادة النافذة: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. وصيغة فعَّال تدل على كمال الفعل ونفوذه؛ فما أَرَادَهُ اللهُ كَوْنًا كَانَ، لا يعجزه مانع، ولا يرده معارض، ولا يحتاج إلى معين.

أما الإنسان فيريد ولا يفعل، وقد يفعل ولا يبلغ غايته؛ تعوقه قدرته المحدودة، ويقطعه الأجل، وتفاجئه الأسباب التي لم يحسب لها حساباً. حتى أصحاب الأخدود، مع ما ظهر من بطشهم، لم يكونوا فعالين لما يريدون على الحقيقة؛ أرادوا محو الإيمان، فإذا الآيات تتخذ أصحابه، وأرادوا

صناعة الخوف، فإذا الحكاية تصنع الشجاعة، وأرادوا أن تكون النار خاتمة الدعوة، فإذا صارت فاتحةً لخلودها في الضمائر.

لقد نجحوا في الفعل الجزئي وفشلوا في الغاية الكبرى؛ أحرقوا الأجساد، لكنهم لم يحرقوا الإيمان. وهذه هي حدود القدرة البشرية: قد تملك الوسيلة ولا تملك النتيجة، وقد تصنع الحدث ولا تسيطر على معناه، وقد تكتب أول القصة ثم يأتي تدبير الله بخاتمةٍ تقلب مقصدك عليك.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يُرِيدُ﴾ لا يعني أن أفعال الله مجردة عن الحكمة؛ لإرادته إرادة العليم الحكيم الحميد، وقد سبقت في السياق أسماؤه التي تمنع القلب من تصور العبث: هو العزيز الحميد، الغفور الودود. يفعل ما يريد بعلمٍ كامل

وحكمةٍ كاملةٍ وعدلٍ كامل، وإن غاب عنا وجه الحكمة في بعض المقادير.

وهذه الآية تريح المؤمن من وهم أنه المسؤول عن تحقيق كل النتائج. عليه أن يصدق ويعمل ويأخذ بالأسباب ويبذل وسعه، لكنه لا يعبد النتيجة، ولا يظن أن نجاح الحق متوقفٌ على قدرته وحدها. الله فعال لما يريد، وقد يخرج من ضعف عباده ما لا تخرجه حسابات القوة، ويجعل من مأساة ظنها الناس نهايةً بدايةً لتاريخ جديد.

إن المؤمنين في الأخدود لم يكونوا قادرين على إيقاف النار، لكنهم كانوا قادرين -بتوفيق الله- على ألا يعطوا النار معنى الانتصار. فعلوا ما يملكونه: ثبتوا. أما ما بعد ذلك فتولاه الذي يفعل ما يريد؛ حفظ قصتهم، ولعن قاتليهم، ووعدهم بالفوز، وجعل رمادهم شاهداً على عجز الطغيان.

وهكذا تكتمل لوحة الأسماء والصفات في هذا الموضع:
 ربُّ شديد البطش فلا يضيع عنده حق، يبدأ ويعيد فلا
 يكون الموت نهاية، غفورٌ فلا يُغلق بابُه في وجه التائب،
 ودودٌ فلا يهجر أوليائه في المحنة، ذو العرش المجيد فلا يعلو
 فوق ملكه سلطان، فعالٌ لما يريد فلا تفلت الخاتمة من يده.

وبهذه المعرفة واجه المؤمنون النار؛ لا لأن أجسادهم لا
 تحس اللهب، بل لأن قلوبهم عرفت رب اللهب. ومن
 عرف الله على هذا النحو، لم تعد القوة أمامه بحجم
 مظهرها، ولم يعد الموت نهايةً كما يبدو، ولم يعد الألم دليلاً
 على الهجر، ولم يعد تأخر العدل إلغاءً له.

هناك، عند حافة الأخدود، كان الطغاة يملكون ناراً
 يفعلون بها بعض ما يريدون؛ لكن فوقهم كان رب

العرش، الذي ترك لهم مساحة الاختيار، ولم يترك لهم
ملك العاقبة.

الفصل السابع

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ؟ حِينَ يَتَكَّرُ
الطُّغْيَانُ وَتَبْقَى النِّهَايَةُ وَاحِدَةً

قال الله تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۚ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ
ۚ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۚ وَاللَّهُ مِنْ
وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾

بعد مشهد أصحاب الأخدود، وبعد الإعلان عن بطش
الله الشديد وعرشه المجيد وإرادته النافذة، تفتح السورة
نافذةً على التاريخ، فلا يعود الأخدود حادثةً منفردة، بل
حلقةً في سلسلة طويلة من مواجهة الوحي بالطغيان. تتغير

الوجوه، وتبديل الأزمنة، وتطور أدوات البطش، لكن المرض الكامن في النفس المتجبرة يبقى واحداً: أن ينسى الإنسان حده، وأن يحول القوة التي استخلفه الله فيها إلى حجةٍ يناع بها الحق.

يأتي ذكر فرعون وثمود في كلمات معدودة، كأن التاريخ كله يمكن أن يطوى حين نكرر سننه؛ فلا حاجة إلى إعادة تفاصيل القصتين، إذ يكفي أن يذكر الاسم حتى ينهض وراءه عالم كامل من الاستكبار والتكذيب والقوة الزائلة. فرعون بما مثله من سلطان مركزي متجبر وجنود منفذين، وثمود بما امتلكته من قوة عمرانية ومدنية ونحت للجمال؛ نموذجان مختلفان في الصورة، متفقان في الجوهر والمصير.

وليس المقصود من استدعائهما تسليية المؤمنين بحكايات الهالكين، بل تعليمهم كيف يقرؤون حاضرهم على ضوء سنن التاريخ. فالحدث الذي يملأ اللحظة حتى يبدو بلا شبهة قد تكون له جذور ونظائر، والطاغية الذي يتحدث كأنه أول القوة وآخرها ليس إلا نسخة مؤقتة من وهم قديم، تكرر كثيراً ثم انكسر.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾

يبدأ الاستفهام بصيغة توقظ السامع: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾. والمراد ليس مجرد السؤال عن وصول الخبر، بل شد الانتباه إلى ما يحمله الحديث من عبرة متجددة. إنه حديث يستحق أن يُستقبل بالقلب لا بالأذن وحدها؛ لأن التاريخ في القرآن ليس مخزناً للمعلومات، بل مرآة تكشف قوانين النفس والمجتمع وعواقب الاختيار.

وسماهم ﴿الْجُنُودِ﴾، ولم يسمهم أمماً أو ملوكاً فحسب،
 لأن السياق سياق قوة منظّمة متكاثرة. والجند هم الذراع
 التي تتحول بها إرادة المتكبر إلى واقع؛ فالحاكم مهما طغى لا
 يستطيع وحده أن يحفر كل أخدود، أو يشعل كل نار، أو
 يطارد كل مؤمن. يحتاج إلى منظومة من الطاعة، وإلى
 أناسٍ يعيرونه أيديهم كي ينفذ بها ما امتلأ به قلبه.

وهنا تنقلنا الآية من مسؤولية الرأس إلى مسؤولية البنية
 كلها. فالجندي ليس آلةً بلا ضمير، والمنفذ لا تبرئه الأوامر
 من السُّؤال الأخلاقي. صحيح أن درجات المسؤولية
 تختلف، وأن المكره ليس كالمتحار، وأن الله يعلم طاقة كل
 نفس وظروفها؛ لكن وجود الأمر لا يحول الباطل إلى
 حق، والانتماء إلى المؤسسة لا يلغي مسؤولية الإنسان أمام
 ربه.

كم من الجرائم في التاريخ لم تكن لتقع لو أن واحداً في السلسلة قال: لن أفعل. وكم من نارٍ اشتعلت لأن كل فردٍ أقنع نفسه بأنه حلقة صغيرة لا وزن لها. الأمر يقول: لم أنفذ يدي، والمنفذ يقول: لم أصدر القرار، والمبرر يقول: لم أحمل السلاح، والمتفرج يقول: لم أشارك؛ ثم تقع الجريمة كاملةً من أجزاء يدعي كل جزءٍ منها البراءة.

ولهذا يرد القرآن الإنسان إلى مسؤوليته الفردية، وإن كان داخل الصفوف. ليست الطاعة قيمةً مستقلة عن الحق؛ فالطاعة التي تنفصل عن البصيرة قد تتحول إلى أخطر أدوات الشر. وحين يسلم المرء ضميره لغيره، لا يتخلص من عبء الاختيار، بل يختار أن يجعل غيره يختار عنه، وسيبقى مسؤولاً عن هذا التسليم بقدر علمه وقدرته.

وإطلاق وصف الجنود يوحي كذلك بضخامة ما كان في أيديهم من أسباب. لم يكونوا أفراداً متفرقين، بل قوةً معدةً، لها قيادة ونظام وأدوات. وهذه الإشارة مهمة في سياق تسليية المؤمنين؛ لأن كثرة الجند كثيراً ما تصنع في النفس وهماً بأن صاحبها خارج إمكان السقوط. لكن التاريخ الذي يستدعيه القرآن هو مقبرة الأوهام المنظمة؛ كم من جيشٍ ظن أن تكافئه تمنحه الخلود، ثم لم يستطع جندي واحد فيه أن يحرس أنفاس قائده من الموت.

إن القرآن لا يحتقر القوة ولا يربي المؤمنين على ترك إعدادها؛ بل أمرهم بما استطاعوا منها. لكنه يفصل بين امتلاك القوة وعبادتها. القوة أداةٌ نافعةٌ إذا خضعت للعدل، وكارثةٌ إذا تحولت إلى مصدر للحق. ليست الحقيقة حقاً لأن وراءها جنوداً، ولا الباطل باطلاً أقل لأنه

محروس بالسلاح. إن السيوف تستطيع أن تفتح طريقاً للحاكم، لكنها لا تستطيع أن تجعل الجور عدلاً.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾

خُصَّ فرعون وثمود بالذكر لأنهما نموذجان بارزان للطغيان القوي المكذب. وكان فرعون صاحب سلطة سياسية وعسكرية واسعة، قد بلغ به الاستعلاء أن قال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، وجعل الناس شيعاً، واستضعف طائفة منهم، وذبح أبناءهم واستحيا نساءهم. أما ثمود فقد اغتروا بما أوتوا من قدرة، ونحتوا من الجبال بيوتاً آمنين، وظنوا أن حضارتهم الصلبة تستطيع أن تمنع عنهم عاقبة التكذيب.

يجتمع النموذجان في عبادة القوة، لكن صورة القوة تختلف: عند فرعون قوة الدولة والجند والمركز المتحكم،

وعند ثمود قوة العمران والمهارة والتمكن من البيئة. وكان القرآن يعلمنا أن الطغيان لا يرتبط بشكل حضاري واحد؛ قد يرتدي تاج الحاكم، وقد يسكن داخل أمة مفتونة بإنجازها المادي، تظن أن براعتها التقنية تعفيها من المسؤولية الأخلاقية.

فرعون رأى الأنهار تجري من تحته فقال لقومه متفانراً: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾، لكنه انتهى غريقاً في الماء الذي اتخذه شاهداً على ملكه. وثمود نحتوا الجبال ليحموا أجسادهم من عوادي الزمن، فلم تحمهم الجبال من أمر الله. وهكذا تنقلب عناصر القوة نفسها إلى شواهد على محدوديتها: الماء الذي دل في وهم فرعون على سلطانه صار موضع هلاكه، والصخر الذي بدا لثمود حصناً خالداً لم يدفع عنهم الصيحة.

إن الخلل لم يكن في النهر ولا في العمران ولا في الجند؛
فهذه كلها نعم يمكن أن تعمر بها الحياة ويُقام بها العدل.
الخلل في انتقال الإنسان من شكر النعمة إلى تأليها، ومن
استعمال القوة إلى الاعتقاد بأنها تمنحه حصانةً أخلاقية.
حين يظن صاحب الإنجاز أن نجاحه دليل على صواب كل
ما يفعل، يبدأ في تحويل الكفاءة إلى براءة، والغلبة إلى
شرعية، والقدرة إلى حق.

والقرآن حين يذكر فرعون لا يريدنا أن نبث عنه في
الماضي وحده، بل أن نتفقد البذرة الفرعونية في النفس:
تلك الرغبة التي تجعل الإنسان يتضخم كلما اتسعت قدرته،
ويرى الآخرين أصغر كلما ارتفع موضعه، ويضيق بمن لا
يردد روايته عن نفسه. قد لا يملك الفرد مملكة، لكن
يمكن أن يكون فرعوناً صغيراً داخل أسرته أو مؤسسته أو

محيطه؛ يريد طاعةً لا تُناقش، ويعد السؤال إهانة، وينسى أن ما تحت يده أمانة لا ملكاً مطلقاً.

وكذلك ثمود ليست أطلاً صخريةً فحسب، بل منطقاً يتكرر كلما ظنت الحضارة أن قدرتها على بناء البيوت تمنحها القدرة على بناء الإنسان تلقائياً، وأن تقدم الأدوات يعوض انهيار القيم. قد يصبح الجدار أكثر صلابةً بينما يصبح الضمير أكثر هشاشة، وقد ينجح الإنسان في نحت الجبل ويفشل في تهذيب نفسه. ليست الحضارة ما يبنيه الإنسان حوله فقط، بل ما يبنيه في داخله وهو يستخدم ما حوله.

ولا يعني ذلك ذم العمران أو القوة أو التقدم؛ إنما يحذر القرآن من انفصالها عن العبودية والعدل. فكل قدرة لا يصحبها ضمير قد توسع مجال الجريمة، وكل تقدمٍ مادي لا يرتق معه المعنى قد يمنح الوحشية أدواتٍ أشد دقة. أصحاب

الأخدود احتاجوا ناراً ووقوداً، أما طغيان الأزمنة اللاحقة
فقد يصنع أخاديه بتقنيات أعقد؛ لكن الجذر واحد: قلب
لا يرى في الإنسان حرمةً إذا خالفه.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾

تنتقل السورة من الماضي إلى الحاضر بـ ﴿بَلِ﴾؛
فليست القضية أن حديث الجنود قد مضى وانتهى، بل إن
الذين كفروا ما يزالون ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾. لم تقل الآية:
يكذبون فقط، بل جعلتهم داخل التكذيب، كأنه ظرف
يحيط بهم، ومناخ يعيشون فيه، وسور يمنعهم من رؤية ما
وراءه.

فالتكذيب حين يطول لا يبقى فعلاً منفرداً يصدر عن
صاحبه عند سماع الحق، بل يتحول إلى بنية نفسية تعيد
تفسير كل دليل. يرى الآية فيبحث عن حيلةٍ لصرفها،

ويسمع النذير فيحول الإنذار إلى مادة للسخرية، ويقرأ التاريخ فلا يرى فيه إلا حوادث متفرقة. لقد دخل في التكذيب حتى صار ينظر إلى العالم من داخله.

وهذه أخطر مراحل الانحراف: حين لا يعود الإنسان مختلفاً مع حقيقة بعينها، بل يصبح محتاجاً إلى تكذيبها كي يحمي بناءه النفسي ومصالحه. فقد يكون الاعتراف بالحق مكلفاً؛ يطالبه بتغيير موقعه، أو رد مظلمة، أو هدم صورة صنعها لنفسه، فيختار إنكار الدليل بدل أن يغير حياته. عندئذ لا تكون المشكلة في نقص البرهان، بل في ثقل الثمن الأخلاقي للاعتراف به.

وفرعون نموذج واضح لذلك؛ لقد جاءت الآيات، وعرف في أعماقه ما يواجهه، لكن الاعتراف بموسى عليه السلام كان يعني سقوط دعوى الربوبية، وانتهاء النظام

الذي بناه على استضعاف الناس. لذلك لم يكن التكذيب موقفاً معرفياً محضاً، بل كان حراسةً للمصلحة والسلطان.

وكذلك أصحاب الأخدود؛ لم يحتـاجوا إلى إحراق المؤمنين لو كانوا مطمئنين إلى هشاشة إيمانهم. إن اللجوء إلى النار يكشف خوفاً دفيناً من قوة الحقيقة؛ فقد عجزوا عن إطفائها بالجمّة، فحاولوا إطفاء حاملها. وكلما اشتدّ عنف الباطل دل—في جانب منه—على اضطرابه أمام شيء لا يستطيع احتواءه.

وقوله تعالى: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ يحذر المؤمن كذلك من أن يتحول رد الحق إلى عادة. تبدأ القسوة باعتراضٍ تدفع إليه شهوة، ثم يحتاج الإنسان إلى اعتراض آخر كي يجمي الأول، حتى يصنع حول نفسه عالماً مغلقاً. لذلك كانت النجاة في صدق الرجوع، وفي أن يبقى القلب مستعداً للاعتراف

بخطئه؛ فالتوبة تهدم سجن التكذيب من داخله، بينما الكبير يضيف إلى جدرانه كل يوم حجراً جديداً.

وقد لا يكون التكذيب دائماً تصريحاً بإنكار الدين؛ قد يظهر في انفصال العمل عن المعرفة. يعرف الإنسان أن الله شهيد، لكنه يتصرف في الخفاء كأن لا أحد يراه؛ ويؤمن باليوم الموعود بلسانه، لكنه يبني اختياراته كأن الدنيا آخر الأمر؛ ويقرأ أن بطش الله شديد، ثم يطمئن إلى ظلم لم يعاقب عليه عاجلاً. هذا تناقض يحتاج إلى يقظة؛ لأن حقائق الإيمان لم تُنزل لتُحفظ في الذهن فقط، بل لتعيد تشكيل السلوك.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾

تأتي الخاتمة كحصارٍ لا منفذ منه: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾. وهم الذين ظنوا أنهم أحاطوا بالمؤمنين،

وحاصروهم عند الأخدود، وجمعوا حولهم الجند والنار،
فإذا السورة تكشف أنهم هم المخاطون.

إنها مفارقة تهدم غرور القوة من جذوره. الطاغية يرى
ما أمامه ولا يرى ما وراءه؛ يحسب عدد جنوده، ويرسم
حدود سلطانه، ويراقب منافذ خصومه، لكنه لا يستطيع
أن يخرج لحظة واحدة من إحاطة الله. وكلما أحكم حصاره
على الناس، بقي هو داخل دائرة لا يستطيع إدراك أطرافها
فضلاً عن الإفلات منها.

وإحاطة الله إحاطة علم وقدر وسلطان؛ لا يخفى عليه
منهم شيء، ولا يعجزه أخذهم، ولا يسبقونه هرباً. وليس
معنى ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ إثبات جهة تحيط بالله تعالى؛ فالله
سبحانه منزّه عن مشابهة المخلوقين، وإنما التعبير يصور عجزهم

عن الإفلات من علمه وقدرته، وأنه محيط بهم من حيث لا يشعرون.

هم ينظرون إلى الأمام في خططهم، والله محيط بما قبل الخطة وبعدها؛ يعرف الدافع الخفي، والقرار السري، والفعل الظاهر، والنتيجة التي لم يتوقعوها. يملكون بعض المشهد، لكنه يملك المشهد كله. وقدرتهم تعمل داخل قدرته، وزمنهم نقطة داخل علمه، وحركتهم لا تخرج عن ملكه.

وفي الآية رعب للمجرم وطمأنينة للمؤمن. أما المجرم، فلأنه لا يستطيع أن يصنع لنفسه منطقة لا تصل إليها العدالة الإلهية؛ ولو أغلق الأبواب، ومحا الأدلة، واشترى الصمت، وكتب رواية مزيفة، بقي محاطاً. وأما المؤمن، فلأن خصمه نفسه ليس طليقاً كما يبدو؛ إنه يتحرك داخل

قبضة الملك، ولن يستطيع أن يتجاوز الحد الذي أذن الله به ابتلاءً وحكمة.

لكن الإحاطة الإلهية لا تعني أن يتخلى الإنسان عن العمل، أو ينتظر تدخلاً خارقاً دون أخذٍ بالأسباب. فقد واجه موسى فرعون، وبلغ رسالته، وسار ببني إسرائيل، وأخذ بأمر ربه؛ فالإيمان بإحاطة الله لا يلغي مسؤولية العبد، بل يحرره من الخوف الذي يشلها. يعمل وهو يعلم أن النتيجة ليست بيد عدوه، ويقاوم دون أن يمنح القوة المتغلبة مقام الألوهية في قلبه.

وقد يمر المؤمن بمرحلة يرى فيها حصار الباطل كاملاً: الخطاب بيده، والقوة بيده، والطرق مغلقة، وأهل الحق متفرون. عندئذ تأتي هذه الآية لا لتقدم حساباً سياسياً ساذجاً، بل لتمنع الحساب السياسي من التحول إلى عقيدة.

نعم، للواقع أثقاله التي يجب فهمها، لكن الواقع ليس الله؛ والقوة ليست قدراً مستقلاً؛ وما يبدو إحاطةً من البشريق كله داخل إحاطةٍ أكبر.

إن فرعون كان محيطاً ببني إسرائيل في ظاهر الأرض: يذبح أبناءهم، ويستحي نساءهم، ويملك الجيش والطريق. فلما جاء أمر الله، صار البحر الذي ظنه موسى ومن معه نهاية الطريق باب نجاة، وصار الطريق نفسه قبراً لفرعون وجنده. ما أضيق رؤية الإنسان حين يحكم على النهاية من الجدار الذي أمامه! فقد يكون الجدار بحراً، وقد يكون فيه طريق لم يظهر بعد، وقد تكون أداة الخوف نفسها باب الخلاص.

وثمود أحاطوا أنفسهم بالصخر، وظنوا أن الجبال التي تحتوها ستمنع عنهم الهلاك، لكن الحصانة المادية لا تنجي

من إحاطة الله. قد يُحكم الإنسان الجدران وينسى الثغرة في روحه؛ وقد يؤمن كل بابٍ خارجي ولا يسأل عن الباب الذي يدخل منه الغرور.

وهكذا يختصر القرآن تاريخ الجبارة في معادلةٍ واحدة: جنودٌ يتكاثرون، وتكذيبٌ يستمر، وإحاطةٌ إلهية لا تنقطع. وبين وهمهم وحقيقتهم مسافة كلمة؛ هم يظنون أنهم يُحاصرون، والوحي يعلن أنهم محاصرون.

ليس السؤال: كم يملكون من الجند؟

بل: هل يستطيع جندهم أن يخرج بهم من ملك الله؟

وليس السؤال: كم طال تكذيبهم؟

بل: هل استطاع طول التكذيب أن يغيّر الحقيقة؟

وليس السؤال: لماذا لم يقع البطش في اللحظة التي أرادها

المظلوم؟

بل: أين يستطيع الظالم أن يذهب إذا جاء الموعد؟

لقد انتهى فرعون، وبقي حديثه؛ وهلك ثمود، وبقيت ديارهم آية؛ ونحمت نار الأخدود، وبقي إيمان الذين ألقوا فيها حيًّا. كل قوة متجبرة حاولت أن تصنع من بطشها خلودًا، فأنهى البطش وصار قصةً يتعظ بها اللاحقون.

ذلك لأن الطغاة يستطيعون أن يقفوا وراء ضحاياهم، لكنهم لا يلتفتون ليروا الحقيقة التي لا مهرب منها:

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾.

الفصل الثامن

الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا الْحَرِيقُ: قُرْآنٌ مُجِيدٌ
فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ

قال الله تعالى:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢﴾﴾

تصل سورة البروج إلى خاتمة آياتها، فإذا بها تنقلنا من الجنود إلى القرآن، ومن التكذيب إلى المجد، ومن إحاطة الله بالمكذبين إلى حفظه لكلامه. وبعد أن رأينا النار تلتهم الأجساد، والجنود يحاصرون المؤمنين، والطغاة يحاولون أن يطفئوا الإيمان بالقوة، نخبرنا السورة أن الحقيقة التي حاربوا أهلها ليست ورقةً يمكن إحراقها، ولا صوتاً يمكن خنقه،

ولا فكرةً بشريةً يطويها النسيان؛ إنها قرآن مجيد في لوح محفوظ.

وكان السورة كلها كانت تسير إلى هاتين الآيتين؛ فالمعركة في جوهرها لم تكن حول حياة الأجساد وحدها، بل حول الكلمة التي حملتها تلك الأجساد. أراد أصحاب الأخدود أن يطفئوا نور الإيمان بإحراق حامله، لكنهم لم يفهموا أن الحقيقة لا تستمد بقاءها من أعمار المؤمنين، بل من الله الذي أنزلها وحفظها. يموت الحامل، وتبقى الرسالة؛ يغيب الصوت، وتظل الكلمة؛ يسقط الداعية، ويبعث الله من بعده قلوباً تتلقى النور نفسه.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾

تأتي ﴿بَلْ﴾ لتضرب عن وهم المكذبين وترد حكمهم على القرآن. فهم في تكذيبٍ يحيط بوعيمهم، يصفون الوحي

بما يمليه عليهم عنادهم، فتقطع الآية الطريق على روايتهم:
ليس القرآن كما تزعمون، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾.

والقرآن مأخوذ من القراءة والجمع؛ فهو كلام يُقرأ
بالألسنة، ويُجمع في الصدور والسطور، وتجتمع فيه هداية
الإنسان في علاقته بربه ونفسه والعالم والمصير. وليس كتاب
معلومات متناثرة، بل بناءً متكامل يعيد جمع الإنسان بعد
أن تفرقه الأهواء؛ يجمع عقله وقلبه، ودينه وآخرته،
وعبادته وعمارته، وخوفه ورجاءه.

ووصف بأنه ﴿مَجِيدٌ﴾؛ والمجد يدل على العظمة
والشرف والسعة وكثرة الخير. فهو مجيد في مصدره، لأنه
كلام رب العرش المجيد؛ ومجيد في نظمه، فلا تنقضي
عجائبه؛ ومجيد في معانيه، لأنه يحمل للإنسان خبر بدايته
وغايته؛ ومجيد في أثره، لأنه ينتشل القلب من عبودية

للحظة إلى أفق الأبد؛ ومجيد في رسالته، لأنه لا يخاطب
طبقةً أو زماناً محدوداً، بل يخاطب الإنسان بما هو إنسان.
وليس وصف القرآن بالمجد مدحاً تجريدياً لا يطالب
قارئه بشيء؛ فجد الكتاب ينبغي أن يوقظ في حامله سؤالاً:
ما حظ حياتي من هذا المجد؟ فقد يحمل الإنسان مصحفاً
فاخراً، ويحيد تلاوة حروفه، ثم تبقى قيمه خارج قراراته،
فلا يظهر في عدله ولا رحمته ولا صدقه. والقرآن لا يطلب
من قارئه أن يزين به صوته فحسب، بل أن يعيد به بناء
نفسه.

إن مجد القرآن لا يزيده إقبالنا، ولا تنقصه غفلتنا؛ لكنه
إذا دخل قلباً صادقاً رفعه. فالإنسان لا يمنح القرآن
مكانته، بل القرآن هو الذي يمنح الإنسان مكاناً إذا عاش
به. وقد خلد أصحاب الأخدود لا لأن التاريخ حفظ

أسماءهم، بل لأن الوحي ضم موقفهم إلى نوره؛ صار ثباتهم آيةً تنبئ، بعد أن أراد الجلادون أن يصيروا رماداً بلا ذكر.

وهنا فرقٌ بين الشهرة والمجد. الشهرة أن يكثر تداول الاسم، وقد تكون خيراً أو شراً، أما المجد فهو شرف الحقيقة وثقلها في ميزان الله. قد يكون الإنسان مشهوراً في الأرض مجهولاً في السماء، وقد يكون مجهولاً بين الناس لكنه مكتوبٌ في موضع الرضا. وأصحاب الأخدود لم تحفظ السورة أسماءهم الفردية، لكنها حفظت وصفهم: المؤمنين والمؤمنات. لقد سقط الاسم الذي يميز الواحد في سجلات الدنيا، وبقي المعنى الذي رفع الجميع في سجل الخلود.

ولعل عدم ذكر أسمائهم يحمل رحمةً تربية؛ حتى لا يتحول انتباهنا من الموقف إلى الأشخاص، ولا نتوهم أن البطولة وقفٌ على أسماء خارقة لا يمكن أن تتكرر. لقد

كانوا بشرًا خافوا كما يخاف البشر، وشعروا بحرارة النار كما يشعر الجسد، لكن الإيمان فيهم ارتفع فوق الغريزة. وبقاء أسمائهم مجهولةً يجعل باب الاقتداء مفتوحاً لكل قلبٍ صادق: لست محتاجاً إلى اسمٍ عظيم كي تقف موقفاً عظيماً، حسبك أن يعرفك الله.

القرآن في مواجهة منطق النار

كان منطق أصحاب الأخدود بسيطاً ووحشياً: من يملك النار يملك الحقيقة، ومن يستطيع قتل المخالف يستطيع إنهاء خلافه. فجاء القرآن ليعلن أن القوة لا تنتج حقيقة، وأن إحراق المؤمن لا يحرق إيمانه، وأن الموت لا يفصل الكلمة عن مصدرها الإلهي.

الحقيقة لا تصبح باطلاً لأن أصحابها ضعفاء، كما أن الباطل لا يصير حقاً لأن وراءه جنوداً. فوازن الوحي لا

تخضع لعدد الأنصار ولا لسعة السلطان؛ قد يبقى المؤمن في لحظةٍ وحيداً أمام أمة، ويبقى الحق الذي يحمله حقاً كاملاً لا تنقص منه وحدته شيئاً.

وقد عبّرت سورة البروج عن هذا المعنى بينها كله؛ بدأت بالقسم، ثم عرضت جريمةً أراد أصحابها أن تكون إعلاناً نهائياً عن انتصار القوة، ثم تابعت كشف مصير الجناة والضحايا، وختمت بالقرآن المحفوظ. كأنها تقول: كل ما رأيتوه من النار والجنود والتكذيب وقع في ساحةٍ تحيط بها كلمة الله، ولن تكون الكلمة الأخيرة للنار.

إن الطغيان يخاف الكلمة حين تكون متصلةً بالحقيقة؛ ولذلك يحاول أن يحاصرها، ويشوه حاملها، ويمنع وصولها، أو يفرغها من معناها حتى تتحول إلى طقسٍ آمن لا يزج الباطل. قد لا يخشى القرآن بوصفه حروفاً موضوعةً على

الرفوف، لكنه يخشى القرآن حين يتحول إلى بصيرة تكشف
زيفه، وإلى ميزانٍ يرد القوة إلى العدل، وإلى يقينٍ يجعل
الإنسان أقل قابليةً للابتزاز.

فالقرآن المجيد لا يصنع إنساناً عديمًا ينسحب من الحياة،
بل يصنع قلباً يعرف قيمة الدنيا دون أن يعبدها، ويأخذ
بالأسباب دون أن يؤهلها، ويقاوم الظلم دون أن يتحول إلى
ظالم، ويثبت على الحق دون أن يدعي لنفسه العصمة. إنه
يحرر صاحبه من ثنائية الخوف والانتقام: فلا يخضع للباطل
خوفاً، ولا يتشبه به حين يقدر.

وعلى قدر ما يدخل القرآن في تشكيل الوعي، يتسع
الإنسان عن حدود اللحظة. وهذا هو السر الذي احتاجه
أصحاب الأخدود؛ كانت النار تقول لهم: هذه نهايتكم،
لكن الوحي في قلوبهم كان يقول: وراءها اليوم الموعود.

كانت القوة تقول: نحن نملككم، وكان الإيمان يقول: لله ملك السماوات والأرض. وكان الجلال يقول: لا شاهد عليكم، وكانوا يعلمون أن الله على كل شيء شهيد.

لم يمنعهم القرآن من رؤية الواقع، بل منع الواقع من احتلال الحقيقة كلها في قلوبهم.

المجد الذي يهبط إلى الإنسان

وصف القرآن بالمجد يعني أن الاقتراب منه اقتراب من عالم أعلى من تفاهة الصراعات الصغيرة التي تستنزف العمر. فالإنسان قد يستهلك أيامه في الدفاع عن صورته، أو مقارنة نفسه بالآخرين، أو طلب اعترافٍ لا يشبع قلبه؛ ثم يفتح القرآن فيكتشف أن عمره أقصر وأثمن من أن يُنفق في هذا الضجيج.

إن القرآن يعيد ترتيب الأبحام. ما كان يبدو في أعيننا
 ضخماً يصغر تحت ضوء الآخرة، وما كنا نظنه تفصيلاً—
 كالنية والصدق والرحمة—يصير عظيمًا في ميزان الله.
 أصحاب الأخدود امتلكوا في لحظتهم عناصر الضخامة
 الظاهرة: السلطان والجند والنار والجمهور، لكن السورة
 مرّت عليها في آيات، ثم بقي وصف القرآن: ﴿مَجِيدٌ﴾. المجد
 ليس لمن علا صوته لحظةً، بل لما بقي حقه بعد أن سكّنت
 الأصوات.

ومن أراد أن يأخذ من مجد القرآن، فعليه أن يقرأه
 بوصفه خطاباً له، لا أثراً مباركاً في حياة الآخرين فقط.
 أن يسأل عند كل آية: ما الوهم الذي تهدمه في داخلي؟
 وما القيمة التي تريد بناءها؟ وأين أنا من أصحاب هذا
 الموقف؟ فقد يلعن الإنسان أصحاب الأخدود بلسانه، ثم
 يمارس في دائرة صغيرة بعض منطقهم: يضيق بحرية من

تحت سلطته، ويعاقب المخالف لا لظلمه بل لأنه خالفه، ويستمتع بانكسار خصمه، ويطلب من الآخرين طاعةً تتجاوز حقه.

إن القرآن لا يعرض الطغاة كي نكتفي بالتبرؤ منهم، بل كي نكتشف مقدماتهم الخفية في نفوسنا. فقبل الأخذ كانت هناك رغبة في الاستحواذ على ضمائر الآخرين، وقبل النار كان هناك غضب من حق الإنسان في الإيمان، وقبل القعود على الحافة كان هناك تدريب طويل على مشاهدة الألم بلا رحمة. ومن لم يقاوم البذور الصغيرة قد يستغرب يوماً الثمرة التي خرجت منها.

وكذلك لا يعرض المؤمنين كي نمدحهم فحسب، بل كي نسأل عن نصيبنا من صدقهم. ليس مطلوباً أن نتمنى الأخذود؛ فالمؤمن يسأل الله العافية، ولا يعرض نفسه

للبلاء. لكن مطلوب أن نبني في أيام الأمن قلباً لا يبيع الحقيقة عند أول تهديد، وأن نتمرّن على الثبات في اختباراتنا الصغيرة: صدق نخشى كلفته، وأمانةٍ تعارض مصلحتنا، وموقف عدلٍ لا يرضي جماعتنا.

فالذي يخون ضميره في كل امتحان صغير لا ينبغي أن يعتر بصورةٍ خيالية يرسمها لنفسه أمام النار. والثبات لا يُنال بالأمنيات، وإنما بتوفيق الله ثم بتربيةٍ طويلة يتعلم فيها الإنسان أن يقدم مراد الله على هواه، وأن يحب الحق أكثر من صورته أمام الناس.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

ثم تأتي الآية الأخيرة: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾. إنها خاتمة تنزل على القلب بسكينة اليقين؛ فالقرآن مجيد في ذاته،

محفوظٌ في موضعه عند الله، لا تناله أيدي المكذبين، ولا تخضع حقيقته لمحاولات المحو والتبديل.

نؤمن باللوح المحفوظ كما أخبر الله، من غير تكلفٍ لتحديد كلفيته التي لم يخبرنا بها؛ فهو من عالم الغيب الذي نقف فيه عند حدود النص. والمقصود هنا يملأ الروح ثباتاً: كلام الله محفوظ، ومصدر الهداية فوق عبث البشر، والحقيقة ليست رهينةً لمزاج التاريخ.

إن الحفظ في هذا الموضع يقابل الإبادة التي أرادها أصحاب الأخدود. هم أرادوا أن يحو المؤمنين، والله يحفظ الكلمة التي آمنوا بها؛ أرادوا أن يجعلوا الحادثة تنتهي في حفرة، والله يجعلها قرأناً يتلى؛ أرادوا أن يطفئوا الذكر، والله يخرج من النار ذاكرةً لا تنطفى.

والحفظ الإلهي لا يعني أن يتخلى المؤمنون عن مسؤولية تعلم القرآن وتعليمه والعمل به؛ فالله يحفظ كتابه بما يشاء من الأسباب، ومن شرف الأمة أن تكون من حملة هذا الحفظ وخدمته. لكنها تعلم في الوقت ذاته أن بقاء القرآن لا يعتمد على فردٍ مهما عظم، ولا على جيلٍ مهما قوي. يسقط حامل، فيهيئ الله حاملاً؛ ويغلق طريق، فتفتح طرق؛ ويظن قوم أنهم أحاطوا بالنور، فإذا النور يخرج من بين أصابعهم إلى آفاق لم يحسبوها.

وهنا يجد الداعية والكاتب والمصلح عزاءً من نوع خاص: ليس عليه أن يحمل الحقيقة كأنها ستضيع إن مات أو ضعف؛ عليه أن يصدق في خدمتها، أما حفظها فعلى الله. هذا يحرره من تضخم الذات، ومن الظن أن الرسالة متوقفةٌ عليه، ويمنحه في الوقت نفسه شجاعة العمل؛ فهو يخدم أمراً محفوظ الأصل والعاقبة.

وما أعمق الفرق بين أن يحمل الإنسان القرآن، وأن يتوهم أن القرآن محتاج إليه! نحن المحتاجون إلى نوره، أما هو فمحفوظٌ بحفظ الله. إن صدقنا رفعنا، وإن أعرضنا استبدل الله بنا غيرنا، وبقي القرآن مجيداً كما كان.

بين أول السورة وآخرها

تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، وتنتهي بقوله: ﴿فِي لَوْجٍ مَّحْفُوظٍ﴾. في البداية فضاء علوي عظيم، وفي النهاية مستقر غيبي محفوظ؛ وبينهما أخدود صغير حفره الطغاة في قطعة من الأرض. هذا البناء وحده يكشف الحجم الحقيقي لكل طرف: السماء لله، واليوم لله، والشهادة لله، والملك لله، والعرش لله، والقرآن محفوظ عند الله؛ فما الذي بقي للطاغية إلا حفرة مؤقتة وناراً ستخمد؟

وتبدأ السورة بشهود، وتنتهي بحفظ؛ فما شهود لن يُنسى، وما حدث لن يضيع، وما آمن به المؤمنون لن يُمحى. وتعرض نارا في منتصفها، ثم تحيط النار من فوقها وتحتها بحقائق الخلود: يوم موعود قبلها، ولوح محفوظ بعدها. وكأن الأخدود محاصرٌ هو الآخرين وعد الله وحفظ الله.

إن الطاغية يعيش على صناعة اللحظة، أما الوحي فيعيش في الأبد. يستطيع الطاغية أن يملأ عصره صخباً حتى لا يُسمع صوت غيره، ثم يموت، فيبدأ الناس بعده بسماع ما حاول إسكاته. وقد يحدث أن يكون موت الضحية هو اللحظة التي تبدأ فيها رسالتها حياةً أوسع؛ لأن الدم إذا امتزج بالحقيقة منحها صدقاً لا تصنعه الخطب.

ومع ذلك، لا يمجّد القرآن الألم لذاته، ولا يجعل النار طريقاً مطلوباً؛ إنما يمجّد الإيمان الذي لم تستطع النار شراءه. ليست القداسة في أن يتعذب الإنسان، بل في ألا يتحول تحت التعذيب إلى خائن لحقيقته أو ظالم لغيره. وليس المقصود البحث عن الأخاديد، بل الاستعداد الأخلاقي إذا حفرتها قوى الباطل في طريق الإنسان.

لقد أراد أصحاب الأخدود أن يقولوا للمؤمنين: نحن نملك جسدكم. فأجابهم الإيمان: لكنكم لا تملكون قلوبنا. أرادوا أن يقولوا: النار خاتمتكم. فأجاب اليوم الموعود: ليست هذه إلا لحظة في الطريق. أرادوا أن يقولوا: لن يبقى منكم شيء. فأجاب القرآن المجيد: ستبقون آيةً يتلوها العالمون.

أَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوا الْحَقَّ رَمَادًا، فَإِذَا الرَّمَادُ نَفْسَهُ ارْتَفَعَ
شَاهِدًا عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَتِ الْكَلِمَةُ فِي مَوْضِعٍ لَا تَبْلُغُ إِلَيْهِ يَدٌ، وَلَا
نَارٌ، وَلَا جَنْدٌ:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.